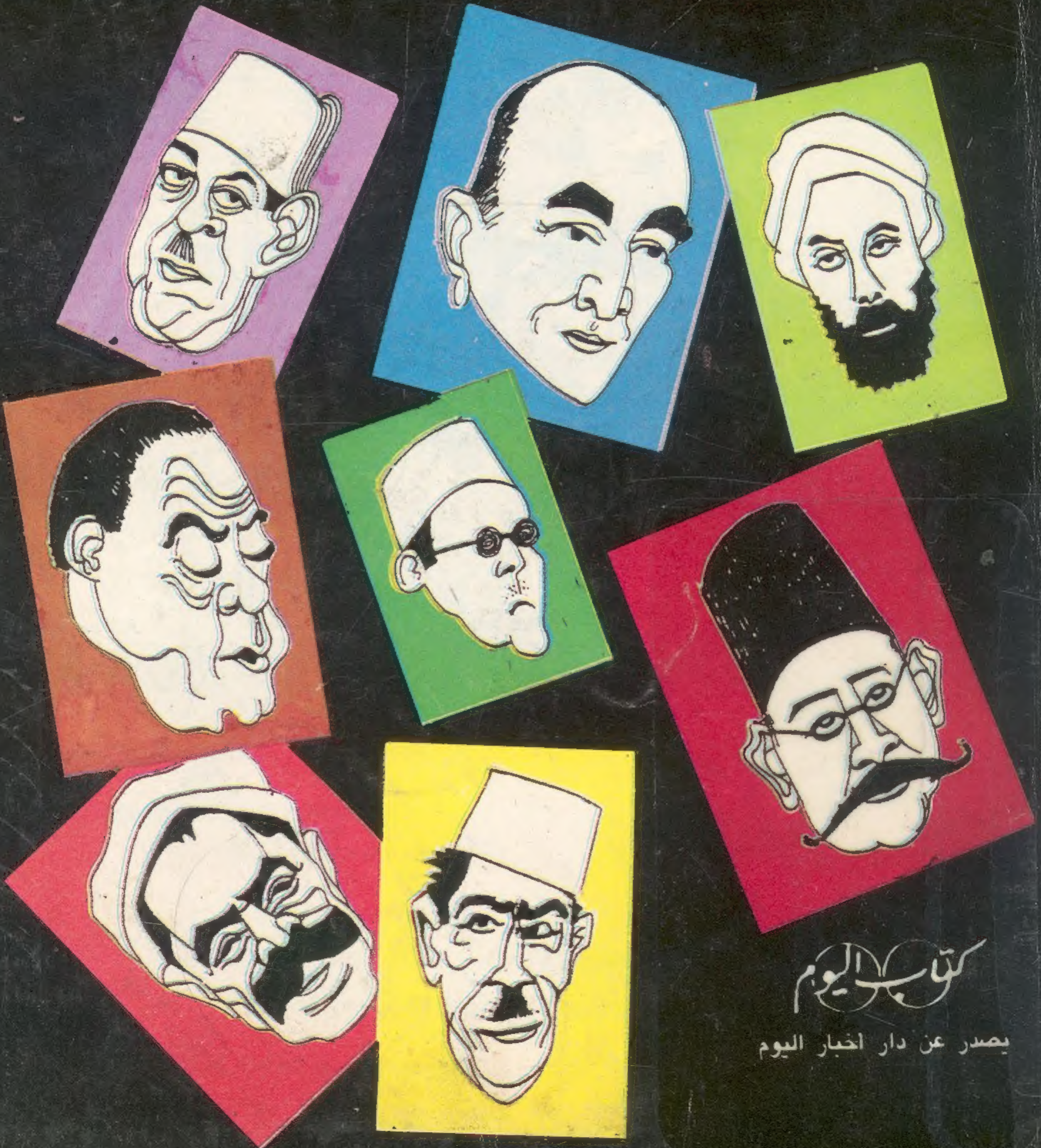


الظرفاء

محمود السعدني



كتاب اليوم

يصدر عن دار اخبار اليوم

كتاب اليوم

يصدر عن دار أخبار اليوم

الظرفاء

محمود السعدني

● العدد ٣٣٥ ●

طبعت بمطابع دار أخبار اليوم

اسعار كتاب اليوم في الخارج

الجمهورية المظمية ١ دينار	المغرب ٢٥ درهم
لبنان ١٢٠٠ ليرة	الأردن ١٠٠٠ فلس
العراق ٧٠٠٠ فلس	الكويت ٧٥٠ فلس
السعودية ١٠ ريالات	السودان ١٥٠٠ قرش
تونس ٢ دينار	الجزائر ١٧٥٠٠ سنتيما
سوريا ٥٠ ل.س	الحبشة ٦٠٠ سنت
البحرين ١٠٠٠ فلس	سلطنة عمان ١٠٠٠ بيضة
عمان ١٥٠ سنت	ج. البنية ٢٥ ريال
المولدانية ٨٠ بنى	السنغال ٦٠ فرنك
الإمارات ١٠ درهم	قطر ١٠ ريالات
انجلترا ١,٧٥ بنى	فرنسا ١٠ فرنك
المانيا ١٠ مارك	إيطاليا ٢٠٠٠ ليرة
هولندا ٥ فلورين	باكستان ٣٥ ليرة
سويسرا ٤ فرنك	اليونان ١٠٠ دراخمة
النمسا ٤٠ شلن	الدنمارك ١٥ كرون
السويد ١٥ فلورن	الهند ٣٥٠ روبية
كندا أمريكا ٣٠٠ سنت	البرازيل ٤٠٠ كرويزو
نيوزيلندا ٣٥٠ سنتا	نوس انطوس ٤٠٠ سنت
استراليا ٤٠٠ سنت	

أسسه

مصطفى أمين
وعلى أمين
رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم سمعه
المشرف على التحرير
● جمال الفيضاني ●

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية
قيمة الاشتراك السنوي ٢٤ جنيها
مصريا

● البريد الجوي ●

دول اتحاد البريد العربي ١٥ دولارا
اتحاد البريد الافريقي ٢٠ دولارا
امريكا لومبايعلله
بالي دول العالم واوروبا والامريكتين
٢٥ دولارا

امريكا الجنوبية واليابان واستراليا
٣٥ دولارا امريكا لومبايعلله
● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة
شهور

● ترسل القيمة الى الاشتراكات ٣

(١) ش. للصحافة

القيمة ت ٧٤٨١٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس : ٢٢٨٢ - محل ٢٠٣٢١ دول

رسوم الشخصيات : محمد عفت
ماكيت : عيد الكريم محمود

تقديم

رأى الاستاذ محمود السعدنى أن يسمى كتابه هذا ،
« الظرفاء » ورأى - ولا أدرى لماذا ؟ - أن أكون واحداً من هؤلاء
الظرفاء .. ثم رأى أن أساهم فى الكتابة بكلمة ! ..
وأبادر فأؤكد للقراء أن الصورة التى رسمها لى صديقى
السعدنى لا تمثل من حقيقتى إلا اسمى .. لو كنت أحد الظرفاء
الذين خصهم بعنايته لرضيت بما نسبته إلى من مزايا تافهة ..
وعيوب جميلة .. وأشياء أخرى غريبة تثير السخرية والابتسام !
وكتاب السعدنى ، بعد ذلك ، متحف أنيق يضم آثار بعض من
الشخصيات المصرية الموهوبة ، وقد تناول المؤلف هذه
الشخصيات بالدراسة المرححة ، والتحليل الضاحك ، وأضفى على
حياتها ظلالاً كثيرة من خياله السخى ! ..

وللسعدنى خيال طاغ قوى ، غير أن هذا الخيال على طغيانه
وقوته لا يقهر الحقائق دائماً .. فكثيراً ما خضع لها ، وهو فى
حديثه عن بعض ظرفاء مصر ، لا يمشى وراء الحقيقة المجردة ،
ولا يمشى أمامها ، ولكن يسير معها ، يصادقها أحياناً ، ثم
يخاضمها كما يخاضم الصديق صديقه !

والشخصيات التى عرضها السعدنى فى متحفه ، تمثل الطبيعة
المصرية ، بذكائها ومكرها ، وسخريتها ، تمثل حضور البديهة ،
ودقة الملاحظة ، وخفة الروح ..

وقد كانت النكتة السلاح السرى الفتاك الذى استخدمه
المصريون فى محاربة الغزاة والمحتلين ، كانت النكتة هى

الفدائي الجسور الذي استطاع ان يتسلل الى قصور الحكام ،
و حصون الطغاة فأقضى مضاجعهم ، وملأ صدورهم بالرعب
والقلق ..

والنكتة المصرية القوية تعتمد على المبالغة فى تصوير
حقيقة ، أو تشويه حقيقة .

● كان زيور باشا رئيسا للوزارة وكان ضخم الجثة ، فوصفه
عبد العزيز البشرى بأنه إذا ركب العربية لم يستطع أحد أن يعرف
هل هو جالس إلى الشمال أو هو جالس إلى اليمين .. ؟ وأنه كان
يمشى فى حديقة داره فتراه من أثنان من المارة هل هو يسير
أمامهما أو هو متجه إليهما ! ..

● وكان مأمون^١ الشناوى يتكلم عن سرعة تضخم حمادة
الطرابلسى وإطراد الزيادة فى وزنه فقال أنه كان يجلس معه فراه
وهو « بيتخن » ... !

● وكان حفى محمود وزيرا للمواصلات فسمع صوتا عاليا
يرتفع من الغرفة المجاورة لغرفته فاستدعى الساعى وسأله : ايه
الزيطة دى ؟ فقال له الساعى ان السكرتير يتكلم من الاسكندرية ،
فقال حفى محمود : قل له بدل ما يزعق كده .. يتكلم فى
التليفون !

● وكان حافظ ابراهيم جالسا فى حديقة داره بطلوان ودخل
عليه عبد العزيز البشرى وبادره قائلا : لقد رأيتك من بعيد
فتصورتك واحدة ست .. فقال حافظ ابراهيم : والله يظهر ان نظرنا
ضعف ، أنا كمان شفتك وانت جاي أفكرتك راجل !

● وكان البشرى وحافظ ابراهيم مدعوين إلى إحدى الرحلات
ودخل البشرى على حافظ فى غرفة النوم وطلب اليه ان يرتدى
ملابسه فقال حافظ أنا لسه مغسلتش وشى ، فقال له البشرى :
وشك موش عاوز غسيل .. نفضه كفاية !

* * *

● وتعود عبد العزيز البشرى أن يستخدم صيفا مختلفة في القسم بالله فكان يقول مثلا : أقسم بالله ثلاثا .. وحق ذات الله العلية .. قسما بذات العزة والجلال .. وكان إذا استعمل أحد هذه الأقسام فى أول الليل ظل يستعمله إلى آخر الليل .. وفى إحدى الليالى لاحظ حافظ أن عبد العزيز البشرى استعمل كل صيغ الأقسام .. فسأله : أية الحكاية ؟ هو مفيش « يمين » نوبتشى الليلة .. !

• وبين الشخصيات التى لمعت فى مجال النكتة ولم تكن لها صفة سياسية أو فكرية ، المعلم دبشة الجزار والأسطى حسين التردى ..

● كان حسين يسير فى الطريق على قدميه فلمحه أحد أصدقائه وكان يسوق عربته الخاصة ، ودعا حسين إلى الركوب معه ليوصله إلى المكان الذى يريده ، وكانت العرببة قديمة فقال له حسين : ما أقدرش . علشان مستعجل ! ..

وزار دبشة إحدى الفنانات فى دارها فوجد عندها رمانا وأبدى إعجابه بالرمان فقالت له : افرط لك رمان يا دبشة ؟ فقال لها : فرطى لى .. فى عرضك !

● وقابل سليمان نجيب إحدى السيدات فى ميدان سباق الخيل فسألها عن اسم الحصان الذى لعبت عليه ، فقالت له : إذا قلت لك اسم الحصان فهل تشاركنى عليه ؟ فقال لها سليمان : أنا موش عاوز أشاركك .. أنا عاوز أشارك جوزك !

* * *

فى هذا الكتاب أكثر من طراز للنكتة وبعض هذه النكت يعتمد على المفارقات ، وبعضها يعتمد على المبالغة ، وبينها نكت تعتمد على الجناس والتورية واللعب بالألفاظ ، وهى كلها تعطى صورة صادقة عن النكتة المصرية ..

بين الشخصيات التي تعرض لها الكتاب شخصيات تجيد
النكتة القاء ولا تجيدها كتابة .. مثل محمد البابلي ومحجوب ثابت
وحافظ ابراهيم وعبد العزيز البشرى ..

* * *

كان البابلي مفكرا على درجة عالية من الثقافة .. وكان يجمع
بين ترف الحياة ، وترف الذهن .. وكان يتحدث بأسلوب لاذع
أنيق ، ولكنه لم يحاول أن يسجل هذا الأسلوب على الورق ..
وكان محجوب ثابت يجنح في كتابته إلى تصنع الجد ،
ويستخدم في مقالاته السياسية شعارات حماسية وطنية ، وكان
حريصا على أن يبدو من خلال ما يكتبه متجههم الوجه ، مقطب
الجبين !

وكان حافظ يبلغ القمة في التعبير عن النكتة إذا القاها ، أو عبر
عنها بالشعر الخفيف ، وكم له في هذا المضمار من أشعار لم
يتضمنها ديوانه المطبوع ، ولكن طريقته المعقدة في الكتابة كانت
تخلق روح النكتة ..

وكذلك كان عبد العزيز البشرى .. فإن أسلوبه الكتابي يعتمد
على جزالة اللفظ ، وهذا الأسلوب يحجب الجمال الذي امتاز به
أسلوب البشرى عندما يطلق نكتة ، أو يحكى حكاية ..
وكان المازنى يجيد السخرية إذا كتب ، ولم يكن يعرف كيف
يقول النكتة ولا كيف يرويها عن غيره ..

أما عبد الله النديم وحسين شفيق المصرى ، فكلاهما كان
يحسن التعبير عن النكتة بالكتابة ، والزجل ، والكلام ، والشعر
الماجن ، والشعر الرصين ..

* * *

لقد كان مفروضا أن أتعرض هنا لدراسة النكتة ما هي ؟
وما الفرق بينها وبين الفكاهة ، والطرفة ، والملحة ، والدعابة ،
والسخرية ، والقفشة ، والقافية .. وهل تأثرت بحضارة العرب ؟

وأي النكت أشد أثراً : النكتة المسموعة ، أم النكتة المكتوبة ،
أم النكتة المرسومة ؟
ولكن مثل هذه الدراسة لا يتسع لها الحيز المخصص لمقدمة
كتاب .. ثم يبقى أن ما كتبتّه ليس مقدمة ، ولا تمهيداً ،
ولا تعريفاً .. وإنما هو مجرد مساهمة بكلمة صغيرة ، في كتاب
غير صغير !

كامل الشسناوي

محتويات الكتاب

من جحا الى الشناوى	٩
أعظم الظرفاء .. عبد الله النديم	١٥
الباسم العبوس .. حافظ إبراهيم	٢٧
سيد الظرفاء .. عبد العزيز البشرى	٣٩
السيد .. العبد .. امام العبد	٤٧
عبد الحميد الديب	٥٥
الأعمى المبصر .. ناجى	٦٥
رب المقالب .. حفى	٧٥
المازنى .. ثالث الفرسان	٨٧
كوكتيل من التاريخ .. شفيق المصرى	٩٧
النكتة للنكتة ! .. محمد البابلى	١١١
لعنة الظروف ! .. د. محجوب ثابت	١٢٣
أتعس الظرفاء .. مجدى فهمى	١٣٥
الثائر الساخر .. بيرم التونسي	١٤٧
الحياة فى إنسان	١٦١
ليس بعد الضحك ذنب !	١٧٣

● كامل الشناوى



من جحا إلى الشناوى

■ الحقيقة .. ان هؤلاء الرجال كانوا
يضحكون الناس والعبرات تخنقهم ،
ويشيعون الأمل والياس يكاد يقتلهم .
ويضحكون بالشفاه وفى القلوب
حسرة . ومات أغلبهم حزينا مهموما
بعد ان ترك خلفه ابتسامة مضيئة ..
على كل الشفاه .

من هم هؤلاء الظرفاء ؟ الذين أشاعوا البهجة فى نفوس معاصريهم ، بل وفى نفوس أبناء الأجيال التى جاءت من بعدهم . وكيف أكتب عنهم ؟ ومن أى زاوية أتناول سيرهم الحافلة وقصصهم الغريبة العجيبة الحافلة بكل الألوان ؟

أبو الظرفاء

يقول البعض أن هؤلاء الظرفاء - على مر العصور - منذ أن نسج خيال الناس المكودين قصة « جحا أبو الظرفاء » ليتلها بها وليضحكوا منها وعليها ، كانوا مجرد جماعة من المهرجين ، عاشوا وماتوا ، ومروا على أرض البشر دون أن يتركوا خلفهم أثراً .

ولكن ، هل هذا صحيح ؟

الواقع يصفع هذا القول على قفاه ، فبعضهم - بعض هؤلاء الظرفاء - قاد الجماهير وأشعل نار الثورة ، واقتحم تاريخ البطولة من أوسع أبوابه ، ومن هؤلاء مثلاً الزعيم الخريف عبد الله النديم .

ويقول البعض الآخر أن هؤلاء الظرفاء كانوا فى مجموعهم من دود الأرض الذين سحقتهم الأقدام على الطريق فتعلقوا بدنيا الرغد والثراء والشهرة العريضة ، واقتحموا هذه الدنيا العجيبة متطفلين يضحكون الأغنياء والوجهاء والمشهورين ، وأن دورهم فى الحياة لم يكن يزيد كثيراً عن دور « الأدبانية » و « القردانية » واللاعبين على الحبال ..

ظرفاء جبابرة

ولكن الواقع يعود فيكذب هذا الزعم أيضا ، فمن بين هؤلاء الظرفاء من كان يجمع بين العلم والشهرة ، ومن هؤلاء الدكتور محجوب ثابت ، ومنهم العملاق فى دنيا الأدب كحافظ ابراهيم والشيخ البشرى .

ومنهم من تولى منصب الوزارة وينحدر من عائلة عريقة يضرب أصلها الطيب فى بطن التاريخ إلى غور سحيق .. وأقصد به المرحوم حفى محمود .

ونظرة خاطفة إلى هذا الصف الطويل من الرجال الظرفاء فى العصر الحديث تجعلنا نهمل ما يقوله عنهم أصحاب العقول والألسنة الجافة . وعلى هذا الأساس ستكون نظرتنا إليهم عندما يأتى دور كل منهم لنؤرخ عنه ..

والذى أود أن أذكره الآن للقراء ، أننى بعد بحث طويل فى تاريخ هؤلاء الرجال خرجت بحقائق مشرقة ومريرة معا !!

عبد الله نديم

من هذه الحقائق مثلا أن زعامة عبد الله النديم قد انصهرت فى البداية - بداية حياته - فى هذه المهنة التى احترفها طويلا .. مهنة الظرف ، فهى المهنة التى قادت إلى المقامى الحقيرة الصغيرة المنتشرة داخل أزقة أحياء الاسكندرية العتيقة . وجعلته يخالط الحمالين والنشالين وأصحاب المزاج الذين يسخرون بكل شىء ومن كل شىء سخرية مرة موجهة كأنها السبباط تجلد ظهر المجتمع الذى عاشوا فيه وأكتووا بأوضاعه المقلوبة .. والشعب المصرى يحب النكتة ويطرب لها ، ويستخدمها كسلاح حاد يطعن به فى غير هوادة ولا شفقة كل الأعداء الذين يحيطون به ويسدون عليه السبل نحو الارتقاء .

ولكأن عبد الله النديم كان يعرف بالحاسة المجهولة التي يتميز بها كل زعيم ، انه عن طريق زعامته في النكتة يستطيع أن يتزعم الجماهير ويدفعها دفعا نحو الثورة .. وقد استطاع النديم أن يتزعم الشلل التي كان يجالسها في المقاهي الحظيرة في صباه ، وكأنها كانت تجربة خطيرة في حياته أهله لتزعم الشعب كله في ثورة عرابي .

والذي يقرأ خطب النديم اليوم التي كان يلقي بها صباح مساء أبان الثورة يعجب لهذا القدر العجيب الذي جعل الرجل الزعيم يستخدم مواهبه الأولى في الزعامة . فتراه لا ينسى النكتة وهو يخطب في الجماهير . وسنعود عند كتابة سيرة النديم الظريف إلى توضيح هذه النقطة بالذات التي أغفلها المؤرخون جميعا عندما تعرضوا لسيرة هذا الرجل العظيم ..

غلطة طه حسين

هذه حقيقة .. وهناك حقيقة أخرى . وهي أن الناس أصدروا أحكاما غاية في البعد عن الحقيقة ضد هؤلاء الرجال . فوصفوا حافظ إبراهيم بأنه كان يعتمد إضحاك الأثرياء والباشوات ليفيد منهم . وهي غلطة كما قلت فظيعة وقع فيها فيما بعد أستاذنا الدكتور طه حسين عندما كتب مقالا عن حافظ قال فيه هذا المعنى منذ شهر . وكان المفروض أن يكون الأديب متجهم الوجه يحتل فمه أكليشييه من الاحتقار للناس ، فلا يضحك إلا بقدر ولا يطرب إلا بمقدار .

هذه الحقيقة المرة لا تجد لها مثيلا في بلاد أخرى . فلم نسمع بعد أن أحداً في إنجلترا وصف برنارد شو بأنه مهرج . بل انهم اتخذوا من تهريجه هذا دليلا على العبقرية . وكذلك كان الحال مع أوسكار وايلد ، الأديب الذي قضى

حياته كلها وهو يضحك على موائد العشاء والشاي فى قصور لندن .. ولم يقل واحداً من الانجليز من معاصريه أو من الذين جاءوا بعده أن أوسكار وايلد كان يعتمد إضحاك الناس ليكتسب منهم . من أن الثابت فى التاريخ أن أوسكار وايلد كان فقيراً ، وأنه اضطر للزواج من إحدى النبيلات الدميمات ليضمن لنفسه عيشاً مستقراً . أما الويسكى والحفلات الصاخبة .. هكذا يقول تاريخ أوسكار وايلد .. فقد كان شيئاً مضموناً لدى الأصدقاء ..

ابتسامات ودموع

والحقيقة المرة الأخيرة ، أن هؤلاء الرجال كانوا يضحكون الناس والعبرات تخنقهم ، ويشيعون الأمل .. واليأس يكاد يقتلهم ، ويضحكون بالشقاوة وفى القلوب حسرة . ومات أغلبهم حزينا مهموماً .. بعد أن ترك خلفه ابتسامة مضيئة .. على كل الشفافة .

على أية حالة لقد ذهب هؤلاء الظرفاء الكبار بعد أن تركوا خلفهم أثراً كبيراً ، فبعضهم استطاع أن يغير تاريخ بلاده ، والبعض الآخر استطاع أن يبيث الأمل فى نفوس الناس ، الأمل بمستقبل باسم مشرق ، وغدا أعظم حالا من اليوم ، وهى مهمة عظيمة لم يقم بأعظم منها العباقرة الكبار الذين غيروا وجه التاريخ .

الظرفاء الأحياء

ولن ننسى ونحن نكتب عن تاريخ الظرفاء الأحياء منهم . ولن ننسى أيضاً المرحوم أبو المجد ، الشاب الذى مات قبل الأوان . ومات وعلى شفثيه ابتسامة وفى نفسه مأساة .

● عبد الله النديم



أعظم الظرفاء ...

■ ■ ■ اللهم اكتبني عندك في أم الكتاب ،
انجليزيا ، فإن لم يكن يا ذا المن ،
فاكتبني عندك خواجا ، فإن لم يكن
يا ذا الإكرام ، فاكتبني عندك
خديويا .. أو باش اغا .. أو اغا !!!!

عبد الله النديم

وجدت نفسي في حيرة شديدة عندما بدأت أكتب قصة عبد الله النديم .. فقصة الرجل ذائعة ومعروفة ، فهو من أحب زعماء الثورة العراقية إلى الناس .. لأنه كان يمثل المصرى الأصيل ، صاحب الروح الخفيفة ، والنكتة الحلوة .. ثم أن عبد الله النديم أكثر من شخصية ، وأكثر من رجل ، حتى حياته نفسها كانت تختلف عن حياة الآخرين ..

بداية حزينه

لقد بدأت حياته حزينة .. فتح عينيه على الحياة ووالده النجار الفقير يخوض في بحار من الهم ومن الحزن .. كانت الحالة في مصر سيئة للغاية .. وحثالة خواجهات أوروبا يعبرون البحار على بواخر متشرده ، ليصبحوا بعد قليل سادة وأثرياء .

وفتح النديم عينيه على الحياة في المدينة التي هاجر إليها أبوه .. مدينة الاسكندرية ليرى كل شيء متناقضا يثير السخرية ويثير الاشمئزاز ، خواجهات ينعمون بكل شيء ، وفقراء يشاركون الدجاج « النيش » بحثا عن الطعام .. والخواجهات لا يهدأون لحظة عن النهب وعن السلب ، والفقراء يتفرجون على الموكب دون ضجة .. لم تكن هناك مقاومة فلم تكن في مصر هيئات ، وليس فيها نقابات ..

والمصريون جميعا يعيشون فرادى كل منهم مشغول
بالبحث عن طعام يومه ..

هكذا كان الحال والنديم طفل صغير يجوب أزقة حي كوم
الدكة بالاسكندرية .. وعندما دفعه أبوه إلى المدرسة لم يجد
النديم فيها شيئاً يثيره .. كانت المدرسة فى نظره عدة مقاعد
صماء ، ومدرس عجوز يلقى على التلاميذ بكلمات ميتة ،
لا روح فيها ولا حياة .. فهجرها هى الأخرى غير أسف عليها
ليدخل مدرسة أعظم وأرحب وأكثر ضجة وأكثر حياة .. هى
مدرسة الحياة ..

بين الأزقة والمقاهى

وفى المقاهى الصغيرة المنتشرة داخل أزقة أحياء
الاسكندرية وحول الميناء وجد عبد الله النديم ضالته ، حيث
يأوى كل مساء عشرات من الحمالين والسقايين ، بل
والنشالين يشربون أقذاح الشاي ويفرقون همومهم فى دخان
الكيوف .. ثم يقضون ليلهم كله فى الضحك والسخرية
بجميع عباد الله وبالأوضاع المقلوبة التى تجعل من بعض
الناس سادة ، ومن البعض الآخر عبيداً لا يجدون
ما يأكلون ..

وكان النديم يحوم حول هذه المقاهى كالفراشة يستمع أول
الأمر إلى ما يقوله هؤلاء الناس المكودون ثم يشاركهم
السخرية بعد ذلك بكل شئ .. السخرية بهم وبالخواجات ،
وبنفسه إذا لزم الأمر .. فإن اهتزاز الأوضاع فى زمانه لم
يترك فى نفسه أثراً لاحترام أحد ..

أول مراتب الشهرة

واشتهر النديم فى المقاهى المنتشرة فى المدينة
وما حولها ... وطار صيته حتى لم تعد هناك نكتة جديدة

ألا وينسب أمرها للنديم ..

ولقد محا الزمن فيما محا نكت النديم فى ذلك العصر
الأول من صباه ، ولم يبق منها سوى النذر اليسير ، ولكنها
تدل دلالة قاطعة على أن النديم لم يكن محترف نكتة لوجه
النكتة فقط ، بل كان يعنى من ورائها أمورا عظيمة ، بل هى
أن شئت الدقة ، كانت بداية الثورة على كل الأوضاع
المهتزة .

نكتة سياسية

فمثلا كان الخواجات فى ذلك العصر فوق القانون .. لم
يكن يجرؤ أحد على سجن الخواجا أو حتى إدانته .. وفى
هذا الصدد قال النديم أن خواجا وقف أمام القاضى فسأله :
— أنت قتلت الراجل ده يا خواجا ؟

ورد الخواجا :

— لا يا خبيبي .. هو « كتل روخه » !

وهتف القاضى منشرحا)

— براءة ..

وجاء دور أحد أبناء البلد ، فسأله القاضى :

— أنت ضربت الراجل ده بالسكين ؟

ورد ابن البلد فى ضراعة :

— لا والنبي يا سيدى القاضى ..

وسأله القاضى من جديد :

— أمال يعنى هو اللي ضرب نفسه ؟

وأجاب ابن البلد :

— أيوه يا سيدى

— وعاد القاضى يقول :

— غريبة .. فيه حد يضرب نفسه .. انت اسبك آيه ؟

ورد ابن البلد الذكى فى سرعة :

— اسمى .. محمد خسين ! ..

والمعنى واضح طبعاً ومفهوم .. وهو يدلك إلى مدى كانت
نكتة النديم تحمل مضمونا عظيما ، لا يستطيع مقال طويل أن
يظهره بهذه الصورة الرائعة ..

عامل تلغراف

المهم أن النديم الذى كان يلقي بالنكتة صباح مساء كان
لا يجد ما يأكله .. والنكتة لا تطعم أحداً ، والشعر والزجل
لا يغنى من الجوع ، فقرّر أن يتعلم حرفة ، وأصبح النديم بعد
قليل عامل تلغراف ..

ثم تشاء الأقدار أن يعين النديم فى سراى والدّة باشا
عامل تلغراف ، وهكذا دخل النديم القصور .. حيث الصمت
الكئيب ، والعادات المضحكة .. والملابس المزركشة ..
ولم يكن النديم على استعداد لأن يقبل حياته الجديدة ..
صحيح أنه ضمن العيش المستقر ، ولكن من قال أن الرجل
صاحب الرسالة ينشد الاستقرار فى العيش ؟ ..

الأغا ... باشا

كان فى القصر رجل اسمه أغا باشا .. كان سيد القصر
غير منازع ، والويل لمن يغضب عليه ، والسعادة لمن يرضى
عنه .. وكان منظر الأغا يدعو إلى الضحك ، كان طويلاً وبديناً
إلى حد الإفراط ، وكرشه المستدير يبرز أمامه ، كأنه الصق
بالصدفة فى هذا الجسم الضخم .. كأنه جسم فيل ..
و « حبكت » النكتة على النديم فأنشد فى الرجل زجلاً
ظريفاً .. غاية فى النكتة والسخرية .

شوف الأغا فى النغنا زى التيران فى المزرعة
لو كنت أنا صاحب الأغا كنت اشتريته بردة

وسمع الأغا زجل النديم فأمر بطرده من القصر ، وأمر
أيضا بأن يضرب بالقباقيب حتى يغمى عليه !
وهكذا خرج النديم من القصر والدماء تسيل من رأسه
ومن أنفه .. إلى غير رجعة ..

الضاحك الباكي

وعاد النديم إلى الحياة الواسعة العريضة يضطك الناس
ويسليهم ويضمن غذاءه .. ولكنه يضحكهم على واقعهم
البائس المر .. على أحوالهم المريضة والأوضاع الكسيحة
المحيطة بهم . ويشير في جراءة إلى الأعداء الذين يكبلون
حرية الناس ، ويعوقون تقدمهم .. استمع إليه يقول :
— شاهد خفير لصا يهبط من نافذة ومعه ملابس ،
ويهدف الخفير في اللص :

— مين اللي هناك ؟

— أنا خواجا ..

— لا مؤاخذة .. كنت أحسبك مصراوى ..

هكذا كان النديم يهوى بلسانه كالمطارق الضخمة ليحطم
كل أعداء الشعب ، ليقول للناس أفيقوا بيها اللاهون عن ركب
الحياة .

نكتة تاجر الخردوات

وعاش النديم تلك الفترة ينزل ضيفا على العمد والأعيان
يأكل عندهم ، ويعقد في منازلهم حلقات السمر التي تستمر
عادة حتى الصباح .. وهو ينتقل من بلدة إلى أخرى وصيته
يسبقه ونكته تطير عبر الحقول الى القرى والكفور فيضحك
الفلاحين على الخواجات وعلى المصريين أيضا ..

ثم يستقر به المقام فى المنصورة .. وله مهنة فى يده هذه المرة .. تاجر خردوات . ولكن تاجر الخردوات الذى يحب النكته لا يستطيع أن ينجح فى بيع الخردوات ، فهو يسخر بالزبائن ويسخر ببضاعته .

« واحد زبون عاوز يشتري فائلة بياقة »

واحد فلاح امبارح طلب منى عمه صيفى .

« واحد خواجه اسلم ولف شال على البرنيطة » .

وفلس النديم ، ويجلس فى المساء أمام الدكان الذى

أصبح خاويا ، ويشير إلى الجمع الذى يلتف حوله ويقول :

— تعرفوا ، أن أحسن صنف ماشى فى الخردوات آيه ؟

ويصيح الجمع المحتشد :

— آيه ؟

ويجيب النديم :

— اللبان ..

وكانت عادة عند تجار الخردوات أيام زمان هى توزيع قطع

اللبان مجانا على الزبائن .. وكان النديم يوزع اللبان على كل

من يلقاه ..

مع الأفغانى

ثم تنشب الثورة .. ولكن قبل نشوبها بزمان قصير ، مر

على أرض مصر رجل كالطيف ، قوى كأبطال الأساطير ، حاد

كالسيف .. اسمه « جمال الدين الأفغانى » وكان عبد الله

النديم قد عرف الطريق إليه يستمع فى اهتمام إلى ما يقوله

هذا الرجل العجيب .. عن الحرية ، عن النضال ، عن

الكفاح ، عن احتمال الأذى والموت فى سبيل مبادئ

عظيمة .. ثم تختطف السلطة المذعورة الرجل العظيم لتلقى

به خارج الديار منفيا .. ولكنه قد أدى الرسالة ، ووضع بذور

الثورة فى قلوب الرجال الذين سيحملونها بعد ذلك ، وكان منهم الظريف الأديب ، عبد الله النديم ..

الثورة

ولكن من كان يتصور أن الثورة ستجتاح أرض مصر كلها بعد ذلك بأعوام .. وأن المصريين سيهبون بالهراوات والعصى والبنادق القديمة القليلة التى لديهم ليطالبوا بالدستور والبرلمان وبخلع الخديو الخائن .. ومن كان يظن كذلك أن هذا الضابط الفلاح الطويل القامة ، المهيب المنظر سيهب على رأس فرقته ليعطى للطفاة درسا .. ثم من كان يظن أن هذا الزجال الذى لا مهنة له ، والذى فشل فى الوظيفة وفشل فى الدراسة ، ونجح فى النكتة ، هذا المصرى الأصيل ، عبد الله النديم ، من كان يظن أنه سوف يحمل على عاتقه أخطر وأشرف مهام الثورة ، وهى مهمة إثارة الجماهير ودفعها دفعا نحو الثورة ؟

اللعنة للمتفرج

ولكن هذا هو الذى حدث ، فلم تكد الثورة تتحرك ، حتى تحرك عبد الله النديم يخطب الناس فى حماس ويكتب المقالات ليعلمهم :

« أيها المصريون ، لا حياكم الله ولا نجاكم ، ما دمتم تعيشون كالسائمة تأكلون من حشائش الأرض وتقبلون أياديكم المشقة ظهرا وبطنا ..

« أيها المصريون ، شموا رائحة أجسامكم ، إنها نتنة قذرة والذيل يجرى بينكم ، استمعوا إلى صرخات أمعائكم ، وواديكم يملؤه الخير ، انصتوا إلى صوت الله يلعنكم مع أنكم حفظة كتابه وحمله رسالته ..

« أيها المصريون ، لعن الله من يكره الحرية ، لعن الله من
تعف نفسه عن أطايب الطعام ، لعن الله من يكره الراحة ،
لعن الله من يقعد متفرجا ، لعن الله من لا يتبعنا » .
وتصبح الجماهير ثائرة :

تحيا الثورة ، تحيا الثورة ..

إذن .. فهذه هي الثورة .. والجماهير التي رآها النديم في
صباه تشرب الشاي وتدخن الحشيش وتضحك من الأعماق ،
يراها الآن تحمل الفؤوس وتطلق البارود وتهتف بحياة
الثورة ..

فِي الْمِيْـدَانِ

وتنشب المعارك التي تمنّاها النديم طويلا ، ويسقط
الكثيرون صرعى ، ويراه أحداهم مرة يسير بين جثث القتلى
الانجليز .. فيسأله :

— ماذا تفعل عندك يا عبد الله ؟

ويرد النديم على الفور :

— أتأكد من موت هؤلاء الناس ، ليطمئن قلبي ، فأنا
أخشى أن يكون عزرائيل خواجا ..
حتى في ساحة القتال ، لا ينسى النديم النكتة ..

سميحة الشستوى

ويتزوج أحد أصدقائه خلال الثورة بفتاة زنجية من جنوب
الوادي .. ويسأل أحد الأصدقاء عن اسم الزوجة ، فيقول
النديم : أظن اسمها سميحة .

ويستفسر الصديق :

— سميحة أيه ؟

ويرد النديم :

— لازم سميحة « الشستوى »

وأخيرا ، تنتهى الثورة ، ويستسلم عرابى وبقية رجال
الثورة اضطرارا .. ولكن أين طويل اللسان ، صاحب النكت
التي أذت أذن الخديو طويلا ، أين هو هذا المخلوق لتتكلم به
السلطة كيفما تشاء ..

نديم يخلف النديم

كان قد هرب مع خادمة بعد أن تنكر فى زي أحد
المشايع ، وراح يجوب القرى ويعبر الحقول فيتلقاه
الأصدقاء بفرح شديد . أصبح النديم ، اليماني ،
والمغربى ، والزعيم الذى هز المنابر والقلوب ، يقتحم
الأسواق لينشد زجلا أو يلقي بنكاته .. ويضحك الناس ويقول
بعضهم لنفسه :

— رحم الله النديم ، لقد أعاد هذا الرجل ذكراه ..
لم يدر أحد وقتئذ ، أن هذا الشيخ الذى هرم وييس ، هو
عبد الله النديم نفسه ..

يفاجئه رجل مرة فيسأله عن اسمه ، فيجيب النديم على
الفور دون وعى :

— أنا النديم .. ثم يستدرك على الفور :
— أنا النديم الأدبى ، وأدبى أحسن م الحائى .. ويظنه
الرجل مجنونا فينصرف .

يعود للثورة

ثم يقبض على النديم بعد أعوام طويلة ، ثم ينفى ، ثم
يعود ، فيجد أن كل شيء قد عاد إلى مكانه . الخونة فى
كراسى الحكم ، والوطنيون تدلوا من حبال المشانق ،
وبعضهم تأكله الحسرة فى المنفى ، فيهب النديم من جديد ،
وقلمه فى يده هذه المرة ، ولسانه يسبق قلمه .. وكانت ثورة
جديدة ..

ويهب الانجليز ومن خلفهم الخديو ليلقوا به خارج مصر ،
فإنه الرجل الذى بقى من زعماء الثورة العرابية ولم تستطع
الأحداث أن تسكت لسانه ..

ويخرج النديم إلى تركيا ، وقد ترك خلفه دعاء على طريقة
دعاء نصف شعبان والناس تقرأه فى المقاهى ، وحول حلقات
الدخان وهم يضحكون :

اللهم يا ذا المن ولا تمنى إلا البشر والإسعاد .. اللهم
اكتبنى عندك فى أم الكتاب ، انجليزيا ، وإذا كان عسيرا
عليك يا ذا المن ، فاكتبنى عندك خواجا ، فإذا لم يكن مقدورا
ياذا الإكرام ، فاكتبنى عندك خديويا ، فإذا لم يكن هذا
يسيرا أيضا ، فاكتبنى عندك باشا آغا ، أو آغا ، اللهم
لا تكتبنى عندك مصريا ، ولا فلاحا أنك سميع مجيب الدعاء
يا رب العالمين .

وفى تركيا مرض النديم ، فقد أجهده النضال الطويل ،
وعذبه المنفى ..

وراء نعشه

وتحركات جرثومة السل تنهش فى صدره ، وتنهش فى
كيانه ، ولكنها لم تستطع أن تسكت لسانه ..

ومات النديم فى الثامنة والخمسين من عمره ، وخرج
بعض الرجال الذين كانوا يعرفونه يشيعون جنازته وسأل رجل
كان يمشى فى الطريق :

— من الذى فى النعش ؟

وأجاب شيخ مهدم عجوز كان يسير فى المقدمة .. وعبراته
تنحدر على خديه .. اسمه جمال الدين الأفغانى :

— انه عبد الله النديم ..

ومط الرجل السائل شفقيه .. ولم يفهم شيئا .

● حافظ ابراهيم



البياضم العبيوس

■ ■ ولكن حافظ رغم البيؤس ورغم الخوف
ورغم القلق كان ظريفاً ، وكان يضحك من
الأعماق ويسخر من كل شيء حتى من
وجوده .

حافظ ابراهيم

قال كاتب القصة العالمى انطون تشيكوف : « من لا يرغب ولا يأمل ولا يقلق لا يستطيع ان ينتج شيئا عظيما ، . وكانت أبرز صفات حافظ ابراهيم .. القلق واعظم انتاجه .. حياته ! ولقد بدأت حياته القلقة الرائعة فى عام ١٨٧٢ حين ولد فى عوامة كان يسكنها أبوه المهندس المشرف على قناطر ديروط .

وكان أبوه ابراهيم أفندى فهمى مصريا صميما وأمه تركية من عائلة متوسطة فكان القلق يجرى حتى فى دمه . ويموت أبوه وهو فى الرابعة . فيتعهده محمد أفندى نيازى خاله . ويدخله المدرسة الخيرية بالقلعة ، ثم المبتديان ، ثم الخديوية ، ثم يهجر حافظ الدراسة ، وقد امتلأت نفسه بغضا للنظام الذى تفرضه المدارس على طلاب العلم . ويسافر به خاله إلى طنطا . وهو فى طنطا لا يعمل شيئا ولا يكسب شيئا . إنه يدور النهار كله والليل كله أيضا مع طالب فى الجامع الأحمدي اسمه الشيخ عبد الوهاب النجار يغشيان المقاهى المتواضعة ، وحلقات الذكر ، ويقرضان الشعر أحيانا ، ولكنه شعر ساذج بارد كحياتهما الفارغة . ويضيق به خاله ، ويعلم له سخطه على الحال التى آل إليها . فيضيق به هو الآخر ، ثم لا يلبث أن يهجره . تاركا له ورقة صغيرة تحوى بيتين من الشعر ..

نقلت عليك مؤونتى إنى أراها واهية

فأفرح فإننى ذاهب متوجه فى داهية
شعر فيه سذاجة ، ولكن فيه مرارة ، وهى أبدا طابع شعر
حافظ ابراهيم .

روب المحاماه

أصبح حافظ ابراهيم بلا عمل ولا مأوى . وهو أحيانا
يتضور جوعا فلا يجد ما يأكله ، ويتمنى أحيانا أن يموت .
عجبت لعمري كيف مد فظالا

وميا أثرت فيه الهموم زوالا
فللموت خير من حياة أرى بها

ذليلا وكنت السيد المفضالا
ولكن هل يفقد الحيلة . ان مهنة المحاماة مفتوحة الأبواب
للهاربين من المهن ، والفاشلين فى الحياة . وهو فاشل
وهارب معا وأيضا طويل اللسان . ولم يلبث أن أصبح
محاميا ، ولكن المحاماة تحتاج إلى صبر ، وهو قلق ، وتحتاج
إلى بحث ، وهو يمقت البحث ، وتحتاج أخيرا إلى نظام ،
فيتركها غير أسف عليها ، ماذا بقى إذن أمامه . لا سبيل
إلا الكلية الحربية .

— ولا يدري أحد السبب الذى دفعه إلى ارتياد هذا
الطريق . وأغلب الظن أن تأثره بقصة حياة محمود سامى
البارودى هو الذى دفعه إليه ، المهم ان حافظا دخل الكلية
الحربية وأصبح ضابطا ، وعمل فترة فى الجيش ثم فى
البوليس ، ثم سافر بعد ذلك إلى السودان فى الحملة التى
كانت بقيادة كتشنر . والشاعر الرقيق الإحساس أصبح الآن
محاربا وفى يده سيف . وهو يكره الحرب . خصرصا إذا
كانت الحرب داخل أدغال موحشة ، وصحراوات مجهولة
الحدود . ويبكى حافظ فى السودان .. يبكى شعرا فيقول :

وما أعذرت حتى كان نعلى
دما ووسادتي وجه التراب
وحتى صيرتني الشمس عبدا
صبيفا بعدما دمفت أهابي
وحتى قلم الإملاق ظفري
وحتى حطم المقدار نابي
متى أنا بالغ يا مصر أرضا
اشم بتربها ريح الملاب
ثم جاءه الفرج بعد ذلك . فقد تمردت فرقة من الجيش
وحوكم ضباطها وأحيلوا على الاستيلاء .. وكان عددهم
ثمانية عشر ضابطا وكان من بينهم حافظ ..

زواجه

وعاد حافظ إلى مصر يبحث عن عمل . عرض نفسه على
جريدة الأهرام ولكنه لم يوفق . وكانت شهرته قد امتدت إلى
مختلف الأوساط . وأصبح يغشى مجالس الشيخ محمد
عبده ، وغيرها من مجالس العظماء . وكان له من جزالة
الصوت وحسن الإلقاء وجيد الشعر .. والفكته ما أفسح له
مكانا في الندوات . وفي هذه الفترة تزوج حافظ إبراهيم ولكن
زواجه لم يدم طويلا . إذ هجر بيت الزوجية بعد أربعة أشهر
ثم لم يعد إليه بعد ذلك حتى نهاية حياته التي امتدت ستين
عاما .

البكوية

وفي خلال هذه الأعوام الستين وقعت لحافظ أحداث
عجيبة .. إنعم عليه برتبة البكوية ، ثم بنيشان النيل ، وعين
بدار الكتب المصرية فلزم الصمت وأثر السلامة .. ولم ينتج
شعرا يذكر خلال تلك المدة الطويلة . وكان السبب في ذلك

خوفه من ضياع الوظيفة ، ولما جاء صدقى إلى الحكم هاجمه
حافظ بشدة . ولكنه لم ينشر الشعر الذى قاله فيه . ولكن هذا
كله لم يمنعه من أن يكون شاعر الوطنية غير منازع .
اشترك فى الأحداث التى هزت بلاده بقلمه ، وكان من خير
شعره ما قاله فى حادث دنشواى . وفى رثاء مصطفى كامل
وسعد زغلول . وكان ينتهز الفرص ليصرخ فى وجوه
المصريين إن أفيقوا ، وإن هبوا ، وكان يبدو متشائما
أحيانا ، ولكنه لم يفقد الأمل فى شعبه . كان واثقا من النصر
فى النهاية . وهو عندما تمتلأ نفسه يأسا يقول :

فما أنت يا مصر دار الأديب

ولا أنت بالبلد الطيب

وكم ذا بمصر من المضحكات

كما قال فيها أبو الطيب

أمور تمر وعيش يمر

ونحن من اللهو فى ملعب

وشعب يفر من الصالحات

فرار السليم من الأجرب

ولكن هذا اليأس المتشائم يعود فيقول لسعد زغلول :

فاوض فخلفك أمة قد أقسمت .

الاتنام وفى البلاد دخيل

عزل ولكن فى البلاد ضراغم

لا الجيش يفزعها ولا الأسطول

ثم هو يرى البعث بنفسه . لقد هبت الجموع النائمة تبحث

عن تاريخها . وهى تحت الخطى فى إصرار نحو الفوز ،

ويهلل حافظ فرحا مزهوا :

افقنا بعد نوم فوق نوم على نوم كأصحاب الرقيم

شاعر الظرفاء

ولكن حافظ رغم البؤس ورغم الخوف ورغم القلق كان ظريفاً ، وكان يضحك من الأعماق ويسخر من كل شيء حتى من وجوده . كان يقول ان الحياة محنة ، وأن من الراجب ان نستعين عليها بالابتسام . وحافظ لم يكن يبتسم فقط ، لقد كان يقهقه ، ويحرك نفوس الناس ليضحكوا هم الآخرون .

بدمه

حدث مرة أن أديبا شابا كثير الكلام كان يغشى مجالس حافظ ، وكان يتحدث دائما عن مغامراته في عالم الضرب والطعن ، وكيف أنه قتل فلانا وجرح فلانا . وذات ليلة جلس الأديب الشاب يقص على حافظ قصة خلافه مع جماعة من الأدباء ، وكيف انه أقسم أن يخرجهم بالدم وسأله أحد الحاضرين :

— ونفذت وعدك ؟

وأجاب حافظ على الفور :

— طبعاً ، وخرجهم بدمه

يبقى أبسطنا

وكان يحضر حفلة موسيقية ، وكان العزف رديئاً والآلات عتيقة بالية . وطلب حافظ من قائد الفرقة أن يسمعهم لحنا معيناً ، فأجاب المايسترو : بأن اللحن الذي يعنيه سبق لهم عزفه منذ دقائق . وصاح حافظ على الفور :

— يا سلام ، على كده يبقى أبسطنا .

أنا أنجليزى

وخلال الحملة السودانية التي كانت بقيادة كتشنر . حدث

أن عاد حافظ إلى المعسكر متأخرا . وصاح الحارس
الانجليزى الذى كان يقف عند الباب :
— من هناك ، وكرر النداء أكثر من مرة ، وارتبك حافظ
ولم يدر ماذا يفعل . ثم عاد فصاح مجيبا :
— أنا انجليزى يا جورج .

ومالى جزمة

وكتب مرة إلى جار له يوم زفافه :
أحمد كيف تنسانى وبينى
وبينك يا أخى صلة الجوار
أشبع مصطفى الخولى وأمسى
أعالج جوعتى فى كسر دارى
وبيتنى فارغ لاشيء فيه
سواى وائتى فى البيت عارى
ومالى جزمة سوداء حتى
أوافيكم على قرب المزار
فإن لم تبعثن إلى حالا
بمائدة على متن البخار
تغطيها من الحلوى صنوف
ومن حمل تتبل بالبهار
فإنى شاعر يخشى لسانى
وسوف أريك عاقبة احتقارى

نكد الدنيا

وكان يكره شاعرا من شعراء عصره كراهية شديدة وكان
هذا الشاعر يتولى منصبا هاما ، وكان حافظ يبدو دائما
محتاجا إليه . ولذلك كان يبدى له الود ، وإن كان ييغضه فى

حقيقة نفسه . سأل الشاعر مرة عن أعظم الشعراء في رأيه
فأجاب حافظ : المتنبي ، فسأله : وأعظم ما قاله ، فأجاب :
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدوا له ما من صداقته يد
ولم يفهم الشاعر طبعاً ما يقصده حافظ إبراهيم .

حافظ مات

وكان حافظ يجلس في مكتبه بدار الكتب حين دخل
الساعي ومعه ورقة تحمل اسم زائر ثقيل . وقال حافظ
للساعي :

— أنا مش هنا .

ومضت فترة ثم غافل الزائر الساعي ودخل على حافظ
مهولاً وقد بسط يده بالسلام :

— صباح الخير يا حافظ بك .

— حافظ بك مش هنا .

وارتبك الزائر ووقف برهة لا يدرى ماذا يفعل . وعاد حافظ
يقول —

— يا أخى حافظ مات ، حافظ راح فى داهية .. هوه
مالكوش شغلة غير حافظ ، دنا بادور عليه بقالى عشر سنين
أقعد معاه لوحدى مش عارف .

بوليس

روى له أحد أصحاب الصحف كيف أنه خرج من منزله
صبيحة صدور صحيفته ليقف بنفسه على حالة التوزيع وأخذ
يروى كيف أنه ركب الترام فوجد كل راكب يحمل صحيفة مع
التذكرة . وقال واحد من المنافقين :

— وأنا كمان والله النهاردة ركبت الترامى لقيت كل راكب
معاه نسخة ما عدا راكب واحد .

وأجاب حافظ على الفور :

— ده لازم بوليس .

ولكن الغريب فى الأمر أن خفة دم حافظ ونكتته الشائقة لم
يبد لها أثرا فى شعره . إذ كان هو فى قرارة نفسه حزينا
مكلوما يشعر بالوحدة ويحس بالحرمان . ولذلك جاء شعره
كله باكيا مريراً ، وأجاد فى الرثاء وفى الوطنية ، استمع إليه
يقول بعد مرض طويل :

مرضنا فما عادنا عائد

ولا قيل أين الفتى الألعى

ولا هش طرس إلى كاتب

ولا خف لفظ على مبتمعى

سكتنا فعز علينا السكوت

وهان الكلام على المدعى

الصيد الحرام

ولكن حافظا المغمض العينين على حزنه الدفين ، كان
ينتفض أحيانا فيبدو ساخطا على كل ما حوله من ظروف
بغيضة . ساخطا على الفقر ، ساخطا على الذل ، برما بالظلم
الذى لا يدري مداه .

عزت السلعة الذليلة حتى

بات مسح الحذاء خطبا جساما

وغدا القوت فى يد الناس كاليا

قوت حتى نوى الفقير الصياما

ويخال الرغيف فى البعد بدرا

ويظن اللحوم صيدا حراما

ثم هو يرى أبناء مصر يسقطون على الطريق والصعاليك
الذين يفدون إليها من بقاع الأرض يمرحون كالآلهة فيقول

حافظ :

بنو مصر فى حمى النيل صرعى
يرقبون القضاء عاما قعاما
أيها النيل كيف نفسى عطاشا
فى بلاد رويت فيها الأناما
يرد الواغل الغريب فيروى
وبنوك الكرام تشكو الأواما
قد شقيننا ونحن كرمنا الله
— بعصر يكرم الانعاما

رجل سلام

وهو أيضا رجل سلام يكره الحرب ، ويكره الطغاة ، ويحب
السلام ، وفى عام ١٩٠٤ قبل أن يرتفع صوت واحد يدعو
للسلام . يهتف حافظ ابراهيم فيقول :
أساحة للحرب أم محشر
ومورد الموت أم الكوثر
وهذه جند أطاعوا هوى
أربابهم أم نعم تنحر
أشبت يا حارب ذئاب الفلا
وغصت العقبان والانسر

ثم يقول :

فهل درى القيصر فى قصره
ما تعلن الحرب وما تضرر؟

منصف الموتى

وعندما وافاه أجله ، جاءت منيته فجأة ، كان يتعشى مع
بعض أصدقائه وهو أشد ما يكون مرحا وبهجة ، ثم شعر بألم
شديد فى أمعائه ، وعندما حضر إليه الطبيب كان حافظ قد

مات ، وماتت بموته المناقسة التقليدية التي كانت قائمة بينه
وبين شوقي ، فقال شوقي العملاق يرثيه :
قد كنت أوتر أن تقول رثائي
يا منصف الموتى من الأحياء
وهكذا انتهت صفحة حافظ ابراهيم ، الذي انصف الموتى
وأنصف الأحياء : - - -



■ ■ لم يكن البشري مجرد سلخر من
الناس والحياة ، بل كان فنا عميق
النظرة ، رقيق الإحساس ، وله بحوث
قيمة في الغناء والقراءات والشعر
والأدب ، وعاش حياة حافلة .

عبد العزيز البشري

من هذا المعمم الضئيل الذي يوزع وقته بين بار اللواء . ومجالس الأدب ، والكتابة في الصحف بأسلوب ضاحك غريب يقطر فلسفة وعمقا وفهما أصيلا لطبائع البشر ودخائل الناس ؟

انه الشيخ عبد العزيز البشري أحد الذين صنعوا تاريخ الأدب الرفيع في مصر .. وواحد من أفراد « الشلة » العظيمة النابغة التي نفحها القدر لمصر في فترة من أعظم فترات تاريخها الحديث شوقي وحافظ ابراهيم ومحجوب ثابت . ولكن عبد العزيز يمتاز عنهم بأنه معمم . وسخريته لاذعة تدمى ولا تجرح . وبديهته حاضرة ، ولسانه كسيف الله المسلول حتى على نفسه ..

يقابله رجل في الطريق فيطلب منه ان يقرأ خطابا . وكان الخط رديئا إلى درجة لم تمكنه من القراءة فاعتذر للرجل ، وظن الرجل ان الاعتذار لجهل الشيخ فصرخ في وجهه متعجبا .

— أmaal لابس عمة ليه ؟ ..

ونزع البشري عمامته من فوق رأسه وألبسها للرجل وصاح فيه :

— طيب لما الحكاية حكاية عمة ، اقرأ أن الجواب بقى .. ويستيقظ من نومه ظهرا على صوت موسيقى منبعثة من بيانو متنقل وأصوات مزعجة لجماعة البلياتشو الذين كانوا

ينتشرون فى مصر فى تلك الأيام ، ويلبس أفرادهم الجبة والكاكولا ويدهنون وجوههم بالزفت والدقيق ، ويضعون على رؤوسهم عمام ، وفتح الشيخ البشرى النافذة وطلب من جماعة البلياتشو أن ينصرفوا ليتمكن من النوم . ولكنهم لم يفعلوا . فطلب منهم بالحسنى أن ينصرفوا مرة أخرى . ولكنهم لم يعملوا بنصيحة الشيخ . ووقف الشيخ البشرى فى النافذة يصيح بأعلى صوته :

— أنت راح تمشى يا جدع والا انزل اضربك قلمين .. ثم يستطرد :

ولا انزل اضربك قلمين ، الناس تقول ده معاهم .

الأبونية !

وكان يجلس مع « الشلة » رجل كلما جاء دور الحساب فى بار اللواء يصر على أن يدفع ثم يخرج من جيبه ورقة من فئة الخمسين جنيها . وبالطبع كان الجرسون يعتذر فيدفع آخر من أفراد الشلة ، وتكررت هذه القصة أكثر من مرة ، وفى مرة هم الرجل يدفع الحساب بعد أن أقسم أكثر من مرة . ثم أخرج نفس الورقة المالية الكبيرة وعلق البشرى على الفور : — انت برضه طلعت الأبونية ..

وكان الشيخ البشرى فى مأدبة عند الأباطية . وخرج ليغسل يديه بعد الغداء وترك جيبه السوداء معلقة على مقعد فى الحجرة وعندما عاد وجد أحدهم رسم وجها لحصار بالطباشير على الجبة فقال الشيخ متسائلا :

— مين فيكم اللي مسح وشه فى الجبة ؟

وشوهد حزينا ذات يوم فسأله حافظ ابراهيم عن سبب حزنه فردى البشرى القصة . قال :

— جاءنى اليوم رجل من الريف يرغب ويلح فى نشر

اسمه بالجريدة . وسألته ، هل أنت عمدة ؟ فأجاب بالنفى ،
هل كنت ضمن زوار رئيس الوزراء ؟ قال لا . هل مات قريب
لك فننشر اسمك فى النعى ، أجاب لا . قلت له اسمع اذهب
فارم بنفسك تحت الترام وعندئذ سننشر اسمك ..
وسأله حافظ :

— وماذا يحزنك فى الموضوع .

وأجاب البشرى :

— يبدو أن الرجل أطاعنى .. فقد خرج .. ولم يعد .

ويرى حافظ شابا وسيما فيهدف قائلا :

— الله أكبر ، هكذا أبناء الأمهات اللاتى تدفع المهور

الغالية لامهاتهن .

ويعقب البشرى على الفور ..

— على كده آلت والدك دفعت « دوطه » للمرحوم

والدك ..

زيور كله

وقلمه كان أكثر مرارة من لسانه . كتب عن زيور باشا ذات

مرة يقول :

« فإذا أطلعت عليه أدركت أنه مؤلف من عدة مخلوقات

لا تدرى كيف اتصلت ولا كيف تعلق بعضها ببعض ، وانك

لترى بينها الثابت وبينها المختلج ومنها ما يدور حول

غيره . »

ثم يقول :

« وأهل مصر يأخذون على زيور « كله » مالا يحصى من

الجرائم على القضية الوطنية . وانهم ليعدون عليه ، بأموال

الدولة واستهتاره بمصالحها . ولكن من الظلم أن يؤخذ

البريء بجريرة الآثم ، وأن يعاقب المظلوم بجريمة الظالم .

فقد يكون الذى أقترف كل هذه الأثام هو كوع زيور الأيسر ،
أو القسم الأسفل من « لغده » أو المنطقة الوسطى من فخذ
اليمنى »

« ان الحق والعدل ليقضيان بتأليف لجنة تقوم بعمل
تحقيق مع صاحب الدولة فتسأل أعضائه عضوا عضوا
وتحقق مع أشلائه شلوا شلوا .. ولعل العضو الوحيد
المقطوع ببرأته من كل ما ارتكب من الأثام هو مخ زيور ،
فما أحسبه شارك ولا دخل فى شىء من كل ما حصل » .

مصاييح الدجى

ثم يغمز بعض السادة مشايخ الإسلام فيقول :
« وزيور يحترم البرنيطة . حتى أنه لا يرد لحاملها طلبا .
وحتى لقد زعموا ان بعض كبار علمائنا الأعلام . مصاييح
الدجى وعمد الإسلام ، بعد ما أعياه الكد والجهد وشدة
السعى وطول الوقوف بالأبواب فى سبيل وظيفة خالية ، عزم
أخيراً على لبس القبعة لعله يحظى بمعونة زيور على افتاء
الديار أو مشيخة الإسلام ومولانا الشيخ المذكور أعلاه ؛
لايعدم الف فتوى من الشريعة : تحل له هذه الذريعة » .

باسم الأمة والحكومة

ويصف الدكتور محجوب ثابت فيقول :
« هو فى ميراثنا القومى لايقل عن آثار سقارة ، وجامع
السلطان حسن ومقابر الخلفاء . وهو جزء من تقاليدنا كحفلة
المحمل ووفاء النيل ، وشم النسيم . وانك لتراه كلما ساروا
بضحية حرية - يقصد شهيد - كان الدكتور أول المشيعين .
فإذا كان اجتماع فى الأزهر كان فارسه المعلم ، فإذا تعانق
الهلل والصليب كان هو الهلال . وإذا اعتدى أحد على
جماعة الأرمن . طار الدكتور إلى دار قنصليتهم يخطب

جمعهم ويعقدُ معهم المعاهدات باسم الأمة والحكومة .

مُطالب سابق

وكتب مرة في السياسة اليومية مطالبا الدكتور محجوب ثابت بأن يكتب على بطاقته : دكتور محجوب ثابت ، مطالب بالسودان سابقا ، وعضو نواب حاليا .

فكرى زمان

وكتب مرة يصف صديقا فقال :

« متكور الوجه ، أضيق العينين فى ضيق محاجر . مقرون الحاجبين لو رأيت مع إخوته لحسبته بعض تلك النباتات التى تخرج وحدها لم يتعهدا منجل البستانى بالتسوية والتهذيب هل عرفت الصديق الذى كان يصفه الظريف .. البشرى : « انه الاستاذ فكرى أباطة » .

المشيق بالسياط

ويشن الشيخ البشرى حملة رهيبة على المتقعرين فى الفصحى الذين يتشبهون بالغريب من اللفظ ، حتى لتحسبهم يكتبون رطانة ، فيقول : إذا أبيتم ألا يتندر الناس إلا بالفصيح فعليكم أولا بتحفيظ الأمة كلها المعلقات السبع والمذهبات السبع والمتنقيات السبع والملحقات السبع ، وأنا زعيم لكم بأن الناس لن يعودوا يسمعون فى أعراس أولاد البلد فى قافية أسماء الشوارع مثلا . الى على جتتك ! اشمعنى ؟ الضرب الأحمر . وسيسمعون بدلها ان شاء الله : هذا البادى على جثمانك ؟ ما باله من أثر المشيق بالسياط ! « ويداعب حافظ ابراهيم فى بابهِ المختار .. المرأة .. فيقول جهم الصوت ، جهم الخلق ، جهم الجسم ، كأنما قُدُّ من صخرة فى فلاة موحشة ، ثم فكر فى آخر لحظة أن يكون

انسانا فكان والسلام ، أما عيناه فكأنهما دقتا بسمارين دقا
وأما لون بشرته - والعيان بالله - فكما عهد به إلى نقاش
مبتدىء تشابهت عليه الأصباغ والألوان فذاب أصفرها في
أخضرها في أبيضها في بنفسجها فخرج خرجا من هذا كله
لا يرتبط بواحد منها بسبب . وإذا أطلقت في البر حسبته
فيلا ، وإذا أطلقت في البحر حسبته درفيلا .

اعور شمال

ويقابله صديق في الطريق فيشكوه له الشيخ البشري من
ألم شديد في المصران الأعور ويشير له على مكان الألم في
الجانب الأيسر من بطنه ، ولكن الصديق يطمئنه بأن
المصران الأعور لا يوجد في الناحية اليمين ويجب البشري
في هم شديد .
يمكن أنا أعور شمال .

نظرة عميقة

ولم يكن البشري مجرد ساخر من الناس والحياة . بل كان
فنانا عميق النظرة ، رقيق الإحساس وله بحوث قيمة في
الغناء والقراءات والشعر والأدب ، وعاش حياة عريضة
حافلة . وسئل قبل وفاته بأيام عن أعظم شاعر .. فأجاب
عبد الحميد الديب . وأعظم أشعاره قال :
تعلمت فيها صبر أيوب في الغنى

وذقت هزال الجوع أكثر من « غندي »
جوارك يا ربى لمثلى رحمة

فخذنى إلى النيران أوجنة الخلد
وكأنما كان الشيخ البشري ينعى نفسه فمات بعد ذلك
بأسبوع وكان قبل ذلك بأيام ملء السمع وملء البصر .
وضاعت مع الشيخ البشري فترة من أجمل فترات تاريخنا ...

السيد . . . المصيد

■ ■ ■ دخل الأدب بازجاله وهي أزجال
لا تقف على اقدام .. ولكنه فرض
نفسه على الأدب والأدباء من خلال
النكتة والقافية .

إمام العبد

لعله أغرب أديب فى زمانه وفى كل الأزمان ، فقد دخل الأدب بازجاله ، وهى أزجال لاتقف على أقدام ، ولكنه فرض نفسه على الأدب والأدباء من خلال النكتة والقافية ! ونكته ليست مسلية وليست مضحكة ولكنها قاسية وتحمل رايًا ، فهو ناقد اذن أسلوبه فى النقد ان ينكت عليك وعلى الآخرين . ولقد كانت قسوته امرأ حتميا جاءت نتيجة وضعه الاجتماعى فهو ابن عبيدين اشتراهما احد الأثرياء الأغنياء من سلالة الترك ، وكان إمام العبد هو نتاج هذا الزواج الفريد .. الغبى !

نشأ إمام العبد فى بيت ليس بيته ومع ذلك يضم أبواه . والكلمة الأولى والأخيرة فيه لرجل جاهل كحمار ، غبى كثور ، عديم النشاط والإحساس كأنه سلحفاة ، وكان الطبيعى والحنمى لولد فى مثل ظروفه أن ينشأ ويتعلم ويتربى ليصبح بوابا أو سايس خيول أو طباحا على أحسن الفروض . ولكن الخطأ الذى وقع فيه الباشا التركى أنه أرسل إمام إلى المدرسة . وفى المدرسة تعلم إمام القراءة والكتابة وفى المدرسة أيضا شاعت قصة حياته فأصبح مضغة فى الأفواه ، وكان لابن العبد أن يدافع عن نفسه ، وكل إنسان يدافع عن نفسه بما تملكه يداه ، ولم يكن إمام العبد يملك شيئا إلا لسانا أطول من حبل الغسيل ، وأحد من سيف المقاتل ، وأشد فتكا من سم الثعبان .

وهكذا حمل إمام العبد سلاحه واقتحم المعركة غير أسف
ولا هيب ..

ضد الجميع

والإنسان - أى إنسان - لا يولد شريراً بطبعه ، ولا يولد
طيباً من بطن أمه . ولكن الإنسان ، يتخذ موقفه دائماً على
ضوء موقف المجتمع منه .. وعندما تكون رجلاً مهاباً ومحترماً
من الناس فأنت بالضرورة طيب مع الجميع .. وعندما تكون
مسخة وملطشة فأنت بالضرورة ضد الجميع .. وهكذا أصبح
إمام العبد ضد الجميع ، لأنهم جميعاً كانوا ضده .

ولكن إمام العبد لم يكن شريراً ، كان ظريفاً ولذلك لم
يخرج على المجتمع ، ولكنه أثر أن يتتريق عليه . وبرع إمام
العبد فى النكتة حتى صار أحد أعلامها فى مطلع القرن
العشرين ، وأصبح زينة كل مجلس ومقصد كل فنان . والتف
حول العبد كل مشاهير عصره ، وكان أقربهم إليه عبد العزيز
البشرى وحافظ إبراهيم ..

وذات مساء كان حافظ يزوره فى بيته ، وخرج العبد من
الحجرة بعض الوقت ثم عاد ليأمر حافظ بأن يلقى بالسيجار
التوسكانى الذى كان يفضلُه خارج الدار . وعندما سأله
حافظ عن السرفى هذا الطلب الغريب ، قال العبد .. « أصل
أبويأ فاهم أن احنا مولعين القرن بجله ، والجلة هى روث
البهائم الذى يستعمله الفلاحون فى الوقود .. »

وذات مساء خرج آخر الليل من البارمع شفيق المصرى ،
وكانت ليلة باردة من ليالى الشتاء ، واستقلا عربة حنطور
ومضى بهما الرجل على غير هدى ، وأخيرا سألهما : البهوات
رايحين على فين ؟ ورد العبد وهو يرتعش من البرد ، الدنيا
برد احنا مش قادرين نتكلم ، إذا كنت عاوزنا نرد عليك أقف

فى شارع دفا واحنا نقولك ..

الجزار الأديب

وكان له صديق جزار هجر الجزارة واحترف الأدب ، وكان
الجزار يجلس مع العبد وحافظ ابراهيم فقال حافظ للجزار :
ازى الحال ؟ وقال الجزار : الحمد لله ، وعاد حافظ يسأله :
الجزارة الأحسن والا الأدب ، فأجاب العبد على الفور : هُوّه
لما كان جزار كانت الكلاب بتمشى وراه ، دلوقت لما أصبح
أديب ، بقى يمشى ورا الكلاب ..

وليس فى العالم أبلغ نقدا لمهنة الأدب من هذه النكتة
الخاطفة القاتلة وكأنه يطلق قنابل من مدفع ميدان .

* * *

وكان البشرى بخيلا إلى حد ما ، فقال عنه العبد :
« البشرى مش ممكن يركب تاكسى إلا إذا كان بوزه ناحية
حلوان » ولما سأله الحاضرون عن السبب أجاب « أصلى
بيخاف أحسن العداد يعمل فلوس فى التدويره » .

* * *

ولم يكتف بالتنكيت على الناس ، بل نكت على نفسه كان
يجلس فى بار اللواء يكتب خطابا لصديق فتساقطت نقطة من
الحبر على الأرض ، فقال على الفور ، يا خبر اسود ، الواحد
بقى يعرق كثير اليومين دول .. ؟

* * *

وكان يجلس مرة مع حافظ محمود ، وكان يرتدى كرافطة
سوداء ، فقال له حافظ محمود زر قميصك يا إمام « باعتبار
أن الكرافطة جزء من جلده » ورد إمام على الفور : « أما بيان
جلدى ، أحسن ما بيان عرضى »

* * *

وكان له صديق شديد الكبرياء وشديد الفقر ، فقال عنه العبد « مرة صاحبنا ده كان ماشى فى السكة وبعدين لقي نص فرنك ، فضل واقف جنبه لحد ما فات واحد فقير ، فنادى عليه وقال له ، وطى يا ولد هات النص فرنك ده » .

وقف يتفرج مع صديق على خناقة حامية والمتشاجران يتشاتمان ثم يكفان عن الشتائم ، ويقتربان من بعض ثم يبتعدان .. ومضت نصف ساعة كاملة ولم تمتد يد أحدهما على الآخر . وسحب العبد زميله وقال له « ياعم ياللا بينا ، دى إشارة بس لكن الخناقة الأسبوع القادم » !

وكان لأحد أصدقائه سيارة قديمة مهككة ، وكان دائم الركوب فيها ثم انقطع عن ركوبها فترة من الزمان ، ولما سألوه عن السبب قال « ياعم أنا ركبتها أسبوع نعل جزمتى داب » .

طلب منه أديب تافه أن يستمع إلى قصيدة من قصائده فقال له العبد فى همس : طب استنى لما نروح خرابة أحسن حد يشوفنا » .

نعى إليه أحد أصدقائه وكان صاحب ورشة لحام فقال فى لهجة أسفة : « الله يلحمه » .

هنا كانت عبقرية إمام العبد الحق ، أما إمام العبد كزجال فقد كان من نوع الزجالين الوعاظ ، غير أن وعظه كان ظريفا وخفيفا لأن الرجل نفسه كان كالطائر الصداح .
وكان الظريف من بيت أدب

وكان أبوه حازم وصاحب عكاز
ماشى على دين الليالى عجب
والعمر مخلوق للسهر والقمار
مالت عليه واحدة وقع فى الشرك
وبات أسيرا للحظ من غير سبب
وكل ما يحضر تقول الملك
حضر وتقديم التحية وجب
ضيع عليها المال بسحر العيون
وجاب له حلية بألفين جنيه
صبح على كيفة أسير الديون
وثروته فى اسم باشا وبه



وهو زجال كما ترى من الدرجة العاشرة ، ولكن نكتة
وقفشاته كانت من طراز عظيم .

ومات قبل أن يصل إلى الخمسين ، ولو أن أحداً من
معاصريه عنى بجمع تراثه لكان للعبد شأن آخر ، فهو لم يكن
صاحب نكتة فارغة ، ولكنه كان أدبياً يصوغ أدبه فى نكتة ،
وكان شاعراً قصائده قفشات ، وكان رساما لوحاته عبارات
ينطقها بنت اللحظة ، وكان مقاتلاً خنجره لسانه .

فى آخر أيام حياته قال له صديق عجوز : تعرف يا عبد لو
أحنا زمان أنا كنت اشتريتك .. وقال العبد : « عندك حق ..
اللى زيك زمان كانوا يشتروا العبيد عشان الزوجات » !!
رحم الله العبد ، لم يبق منه الآن إلا كلمات على السنة
المحبين وما تبقى من الأصدقاء !



● عبد الحميد الديب

عبد الحميد الديب

■ ■ ■ ويدور عبد الحميد في الحلقة
المفرغة حول نفسه ، يستجدي
الناس ويشتمهم ، ويقرض شعرا
سيظل رغم كل ما يقال فيه ، أصيلا
في حياتنا ، وله في تاريخنا تاريخ .

عبد الحميد الديب

عام ١٩٣٠ ، وصدقى باشا يحكم مصر ببدأ من حديد
وكثيرون لا يستطيعون دفع الضرائب المستحقة عليهم ،
ويسقط عشرات قتلى المحنة بالذبح والجلطة والموت
المفاجيء السريع وعساكر البوليس تجوز القرى
والحقول .
وكان منهم والد الشاعر البائس الحزين ، عبد الحميد
الديب ..

من دار العلوم .. إلى الشارع

حدث ذلك عام ١٩٣٣ ، وكان عبد الحميد الديب في دار
العلوم ، ووجد نفسه فجأة بين أمرين ، أما مواصلة الدراسة
والموت جوعا ، وإما الخروج إلى الشارع والبحث عن طعام ،
واختار عبد الحميد الشارع ، وخرج إليه .
ولكن ماذا يستطيع طالب دار العلوم الفاشل أن يصنعه ،
أنه يستطيع الوقوف عدة ساعات أمام بعض الصغار يعلمهم
شيئا مما تعلمه ، ويقبض أصابعه كل نار على قروش تساعد
على الحياة ، ولكن هذه المهنة الكئيبة لم ترق في عينيه طويلا
فسرعان ما هجرها إلى الشارع من جديد ..
وكانت نفسه قد امتلأت يأسا وفاضت أسى ، وبشبت في
جوانحه نار الكراهية لكل الناس .. لم يكن عبد الحميد يعلم
أنهم مثله مظلومون ، ظن هو - خطأ - أنهم من أولاد من
محنته .

وكان عبد الحميد يملك أدوات الهجوم على الناس ، يملك
لسانا سليطا وموهبة تطيعه فى قرض الشعر خصوصا عندما
يكون الشعر موجها ضد أحد ، حتى ولو كان هذا « الأحد »
هو عبد الحميد الديب نفسه !

ويتساءل عبد الحميد الديب وهو فى المحنة التى لا يعرف
مبرا لها ، هل هو حقا مخلوق آدمى ، له نفس الحقوق التى
للآخرين ؟ يتساءل فى شعر حزين يقطر ألما وحزنا وكفرانا
بكل شيء .. :

أخلفتنى يارب أم أنا واهم
أنا ما خلف لأننى لا أرتق !
وهو يكره الناس ، ويعددهم مسئولين عن محنته ، أنهم
يسخرون منه ، فلا بد أن يسخر بهم ، هؤلاء الذئاب آكلة لحوم
البشر ..

ترى ماذا طعمتم فى مؤائدكم ؟ ..
لحم الذبيحة أم لحمى وأخلاقى
بين النجوم أناس قد رفعتهموا
إلى السماء فسدوا باب أرزاقى
وينظرة عبد الحميد إلى نفسه .. إنه لا يجد ما يأكله .
وأيضا لا يجد ما يستره :

وجلبابى كعصطاف الغنى نوافذا
ومشتى الفقير ابن السبيل هشيما
والناس ليس عندهم وفاء .. وأصدقاء الطفولة والصبا
لا يرحمون تدهوره ، وتتحالف عليه المحن ، الزمن الغادر
والأصدقاء وعبد الحميد يجتر حسرته فى شعره :
ليت المهاد كلاب ان كلبتنا
لما تزل لحفاظ الود عنوانا

تحملت قسطها في البؤس صابرة
لم تشك جوعا ولم تستجد انسانا

يسخر من نفسه

ولكن ماذا يفعل هو ، وقد فقد كل شيء حتى المقاومة ،
إنه يستسلم الآن للمصير الذي انتهى إليه ، إنه كرجل سقط
من فوق عمارة مرتفعة فهو لا يستطيع إلا أن يدور مع الريح
في كل اتجاه !

- دمع الشكوى وهات الكأس نسكر

ودعك من الزمان اذا تنكر

وهام بي الأسى والبؤس حتى

كأنى عبلة والبؤس عنقر

كأنى حائط كتبوا عليه

هنا يا أيها المزنوق « ترتر »

وهو في نفس الوقت يحقد على الحياة ، ويتمنى أن تنزل ،
أنه أنانى سؤد الحرمان قلبه ، وحطم نفسه ، أنه ذئب هو
الآخر .. مثل الآخرين ..

ويا ليت السما تهوى علينا

ويا ليت النجوم الصاعقات

أنه ينسى نفسه هذه المرة .. ويذكر « علينا » لأول مرة ،

لقد أصبح عبد الحميد شمشون . يود لو تهدم المعبد على

رأسه ، وعلى كل أعدائه .. والبشر جميعا أعداء لعبد

الحميد .

ويدور عبد الحميد في الحلقة المفرغة حول نفسه ،

يستجدي الناس ويشتمهم ، ويقرض شعرا سيظل رغم كل

ما يقال فيه ، أصيلا في حياتنا ، وله في تاريخنا تاريخ .

حذاء جديد

ولكن عبد الحميد لا ينسى فى ساعات صفوه أن يضحك الناس ، وأن يبهجهم ، يقابله صديق مرة فيتحاشاه عبد الحميد ، ويهرع الصديق لعناقه ويسأل لماذا يتحاشاه ؟

ويقول عبد الحميد أنه قد قرر أن يتحاشى الناس كلهم ، فقد أصبح له حذاء جديد وبذلة جديدة .. ويضحك الصديق حتى يستلقى على قفاه ، فقد كانت البذلة والحذاء ليسا جديدين ، ويغيب عبد الحميد أياما طويلة ، ثم يعود للظهور من جديد .. ويسأله صديق عن سر غيبته ويجيب عبد الحميد :

— كنت فى البلد شفت « الفدانين » ورجعت ، ويتسائل الصديق مندهشا :

— فدانين أية ؟ ..

ويجيب عبد الحميد :

— واحد صاحبنى اسمه محمد الفدانين ..

* * *

وكان يجلس الساعات الطويلة يروى قصة مغامراته مع النساء وكيف أن سيدة متزوجة من رجل عظيم وقعت فى هواه ، وكيف ذهب معها إلى شاطئ البحر ، وقضى معها أياما جميلة بهيجة .

ويسكت عبد الحميد الديب ، ثم يرتفع صوت صائحا :

— على الطلاق ما حصل يا عبد الحميد ..

ويصيح عبد الحميد على الفور :

— على الطلاق ما حصل ..

حل العمائم

ويذهب عبد الحميد مع أحد أصدقائه إلى قرية قريبة من القاهرة ليؤدي واجب العزاء فى وفاة أحد مشايخ الأعراب .. وكان السرداق مكتظا بالناس أصحاب العمائم ويقف عبد الحميد على دكة خشبية ويصيح فى الجالسين وهم آلاف :

— أيها الناس ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا مات عزيز لديكم فحلوا عمائمكم .. ويخيم الصمت على السرداق ، ويحل جميع الموجودين عمائمهم فى صمت ، ثم يرتفع صوته من جديد ، أعيدوها كما كانت .. ويكشف عالم من الأزهر كان فى السرداق وأخذته المفاجأة فحل عمامته هو الآخر ويكشف انه ليس هناك حديث نبوى فى هذا الشأن على الإطلاق !!

وتثور الجماهير على عبد الحميد الذى غرر بها ، ويلزم عبد الحميد فراشه بعد ذلك شهرا كاملا لا يستطيع أن يبرحه من أثر الضرب الشديد ..

ولكن عبد الحميد رغم كل شىء يعيش فى مشاكل لا حصر لها ، وهو يريد ان ينسى مشاكله .. ولاسيلى إذن إلا المخدرات ، ويغرق عبد الحميد فى بؤرة الهيرويين ، ثم تظهر له وظيفة فى الأفق .. عام ١٩٤٣ .

أرادت السلطة البريطانية أن تظهر للناس قوتها فى ميدان الحرب ، فجاءت بطائرة المانية سقطت فى معركة العلمين ، ووضعتها فى ميدان قصر النيل ، ليراها الناس ، وكان لابد من رجل يرشد الناس إلى قصة الطائرة ، وكان الرجل عبد الحميد ولم تمض شهور حتى أزيلت الطائرة من الميدان ، وعاد عبد الحميد إلى الشارع .

مشرد رسمي

ثم يأخذه الاستاذ عبد الحميد عبد الحق ويوظفه بوزارة
الشئون الاجتماعية ويمرتب شهرى قدره ستة جنيهات ..
ستة جنيهات ليأكل وينام ويلبس كما يفعل سائر الموظفين
ولا سبيل الآن إلى التسول فهو موظف حكومى كبير ..
ويضيق عبد الحميد بالوظيفة وما جرت عليه فيقول :
بالأمس كنت مشردا أهليا

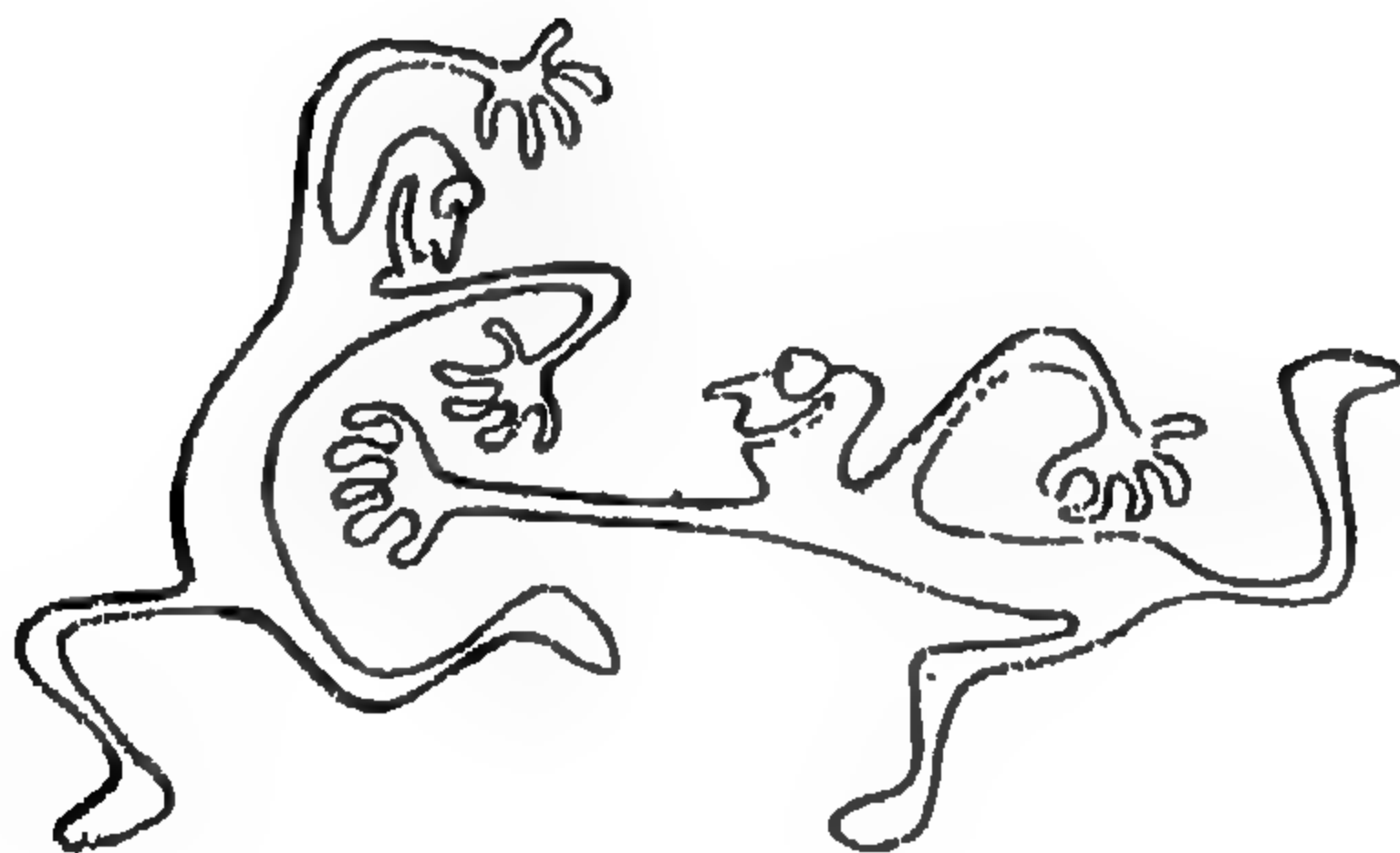
واليوم صرت مشردا رسميا
ويهجروا إلى الأبد ، ليعود إلى الشارع يشتم الناس ،
ويستجديهم وتشدد عليه العلة ويقسو عليه الداء .. وينتهى به
الحال أخيرا الى فراش قذر بمستشفى قصر العيني ..
وكأنما لمح عبد الحميد نهايته .. لقد أن لهذا الكادح
المعذب الذى قست عليه ظروف أقوى منه كثيرا ، هى
الظروف التى جرت على أبيه الخراب ، وقتلته محسورا وألقت
به هو الى الشارع مع الكلاب .. أن له أن يستريح ويهتف
عبد الحميد وكأنه يرى مصيره المحتوم ..

وداعا شبابى فى ربيع شبابى
وأهلا حسابى قبل يوم حسابى
ثم يقمص عينيه ويستريح إلى الأبد

ولم يترك خلفه شيئا ، سوى عشرات من القصائد بعضها
يصلح للنشر ، وبعضها يعاقب عليه قانون العقوبات ، وحجرة
قدرة معتمة كان ينام فيها أحيانا ولم يكن بها شيء ، كان هو
فيها كل شيء ..

لم يذكره أحد عندما مات . رجل واحد فقط ذكر الناس به
فقد كان صديقا له فى حياته هو الشاعر الكاتب المعروف
كامل الشناوى فقد كتب يومها يقول :

« اليوم مات شاعرٌ تعرى واكتست الأرضية ، جاع
وشبعت الكلاب .. »
وكم من الكلاب ماتت بالتخمة ، وكم من الناس ماتوا مثل
عبد الحميد الديب من الجوع .



● ابراهيم ناجي



الأعشى المبصر .. ناجي

■ ■ ■ شيء واحد كان يحسه ناجي
بوضوح .. هو وحدته ، والوحشة
التي كان يعانيتها والإخلاص الساذج
الممزق الذي تتمسك به نفسه
الشفافة الحانية .

ابراهيم ناجى

عاش وإحدى عينيه مفتوحة على حقائق بشعة من الحياة ، والعين الأخرى نصف مغلقة ، تثقلها الأحلام .
هكذا وصف ناقد من معاصرينا الشاعر ابراهيم ناجى .. والحقيقة تخالف رأى الناقد .. فقد عاش ناجى وإحدى عينيه مغلقة ، والأخرى نصف مفتوحة ..

ومن خلال هذه الفتحة راح ناجى يرى حقائق مشوهة ليست واضحة ، وبالعين المغلقة راح يحلم بعيدا عن المجموع أحلاما حاول أن يفرضها على الواقع .. ولهذا السبب لم يلمع شعره - رغم جدته وقوته - لأنه لم يدرك سر القوة التى تجعل من الواقع عالما أقوى وأجمل وأعذب من الأحلام .. فناجى واحد من الذين لم يكتشفوا سر انقلاب الأوضاع حتى بدت بشعة رهيبة ، فارتدوا منطوين على يأس قاتل .. ولكنهم أحيانا كانوا ينطلقون ، كل منهم بنفسه ثم يعود منفردا كما انطلق .. فلم يتح له ولا لغيره من أمثاله أن يشعروا بالقوة التى تمنحها الجماهير للذين يعيرون عن إرادتها ، فظل حياته كلها يجتر أحزانه ، ويغنى للحياة غناء كأنه الأنين .. بائسا يائسا يثير الرثاء ..

ولكن ناجى رغم ذلك لم يفقد أبدا القدرة على الإبداع .. وكان له فضل عظيم على شعرنا المعاصر ، فقد استطاع تحريره من اصفاة ثقيلة قعدت به عن تحقيق أهدافه زمنا طويلا .. وفتح أمامه طريقا واسعا انتهى به على أكتاف

شباب الجيل المعاصر إلى دنيا الجماهير يخاطبها ببساطة
ويترجم أمانيتها في عذوبة أو يدفع بعجلة الحياة في إصرار
إلى الأمام .

شيء واحد كان يحسه ناجي بوضوح .. هر وحدته
والوحشة التي كان يعانيتها ، والإخلاص الساذج الممزق
الذي تتمسك به نفسه الشفافة الحانية .

أرنبو إلى الناس في جموعهم
أشقتهم الحادثات أم سعدوا
تصور ، إنه لا يدري .. وهو نفسه لا ينكر ذلك .. فهو
أعظم من غيره .. إنه لا يدعى خبرته بالناس والحياة والسر
كما قلت إنه كان غريباً عن دنيا الناس .. لم يكن يحيا معهم
ولا بينهم .

نم، غريب تعال ياسكني
فليس لي في زحامهم أحد
طرف واحد

ومن أجل هذه الوحدة عاش ناجي طول حياته حائراً
لايستقر على حال .. ولعل هناك سبباً آخر هو غرامه العنيف
الذي كان يعيش فيه ويعيش له .. غير أنه .. وهنا العقدة ..
كان غراماً من طرف واحد .. فقد كان هو وحده الذي يحب ..
أما الطرف الآخر أو الأطراف الأخرى فلم تكن تحس
بوجوده .. وأن أحست فلم يكن هذا الإحساس يزيد عن كونه
شاعراً مشهوراً ورجلاً من الظرفاء ..

والعقدة التي حولت كثيرين من أعلام الفن أمثال لوتريك
وكافكا إلى هوة سحيقة من اليأس ، هي نفسها التي أمدت
ناجي بالأمل .. وحلت عقدة لسانه فجعلته لاذعاً ومن هنا
أيضاً جاءت شهرته كواحد من الظرفاء .

فناجى الفنان كان ضئيلاً قصيراً غير متناسق الأعضاء
ولأنه لم يكن مؤمناً بشيء على الإطلاق فقد سخر من كل
شيء ، وأثار السخرية على كل شيء .. حتى على عمله وعلى
نفسه ..

روى مرة أنه عاد مريضاً مشرفاً على الموت فرصف له
الدواء واشتراه من جيبه ثم منحه جنيهاً وانصرف ..
ومضت أيام طويلة حتى التقى بزوجة الرجل المريض ،
وكانت سعيدة مبهجة ، وسألها ناجى عن حالة زوجها
فأجابت مسرورة : الحمد لله ربنا يخليك لنا يادكتور .. الجنيه
بتاعك جبناً به دكتور كويس ، وربنا شفاه والحمد لله ..
ويضحك ناجى حتى يستلقى على قفاه ..

كلب بوليسى

وخلال أيام الظلام ، عندما فرض الطاغية فاروق على
القاهرة أن تنام فى السادسة من مساء كل يوم .. كان ناجى
يحمل تصرّيحاً يخول له حق التجول فى أى وقت يشاء ..
ثم ذات ليلة هاجم كلب ضال ناجى أثناء سيرة فى الطريق
وعضه فى ساقه فلزم الفراش ، وراح ناجى يروى القصة
لأصدقائه قال :

— أنا ماشى الساعة واحدة ، والكلب ماشى ورايا ..
أطرده مافيش فايده .. أزوغ منه القاه ورايا .. افنكرته فى
الآخر كلب بوليسى .. ورحت مطلع التصريح وعلى طول
يا أفندم وراح هاجم على وعاضضنى ..

ويضحك ناجى ويقول :

— ظهر أنه كلب جاهل ما بيعرفش يقرأ ..

أجـرنـى

ومرة خرج ناجى من عيادته بشبرا فشهد جنازة يبدو من مظاهرها أنها لرجل فقير ووحيد أيضا ، فلم يكن خلف النعش سوى أربعة رجال يبدو أن الصدفة وحدها هي التي جمعتهم ، وسار ناجى بدافع الشهامة مع المشيعين ، ثم خطرت له فكرة رائعة ، لماذا لا يشترك فى حمل النعش حتى يكسب ثوابا .. ونفذ الفكرة على الفور .. يقول ناجى :

— ودخلت على الراحل الى شايلى من قدام .. وقلتو أجرنى « تعبيري قال فى مثل هذه المناسبة فراح مأجرنى على طول زى ما يكون كان منتظرنى .. وشلت الخشبة يا أستاذ من شبرا لغاية شبرا البلد .. والميت الله يرحمه كان ثقيل .. والدنيا حر .. ولا واحد عاوز يأجرنى .. وصلنا شبرا البلد ، حمدت ربنا لأن التراب هناك ، لكن المصيبة الكبرى ان واحد من المشيعين لقيته بيسأل العسكرى ببلاهة : وحياتك قلوب من أى ناحية ؟

ويقول ناجى : وعندئذ سقطت فوق الأرض ، والميت من فوقى وعندما أفقت لم أجد أحدا .. سوى الظلام .

شاعر ملكى

وكان - رحمه الله - يستقل عربة مع صديق له فى طريقهما إلى الاسكندرية عبر الطريق الزراعى وأوقفت العربة إحدى نقط المرور لسبب ما .. وأراد الصديق أن يدلل على أهمية صديقه لعسكرى المرور ، فقال له مشيرا إلى ناجى :

— الدكتور ابراهيم ناجى الشاعر الكبير ..

ونظر العسكرى فى بلاهة إلى الدكتور ناجى ثم قال متسائلا :

— بتجول شاعر ؟ .. أما يعنى لابس ملكى ليه ؟ !

إصرار قصيدة

وكان ناجى يضيق ضيقا شديدا بشاعر شاب ثقل الظل
بصر دائما على أن يسمع ناجى قصائده التافهة .. ولم يكن
ناجى يجرؤ على جرح شعور هؤلاء الشبان الذين كانوا
يتهافتون على صداقته .. ولكنه لم يكن يخفى ضيقه بشاعرنا
الثقل .. فقد كان يتبعه كظله .. ثم ظهر ناجى مرة وحيدا
وليس معه أحد .. وأقبل عليه أصدقاؤه يهنئونه :
— مبروك ، خير ان شاء الله ، مات ولا إيه ؟

وصمت ناجى قليلا ثم قال :

— أبدا ، سمعت دلوقت أن البوليس قبض عليه ..

— قبض عليه ، ليه ؟

— ضبطوا معاه قصيدة .. ولو انكر انها بتعته ، أنا

حشهد ضده ..

بين الدكاترة

ونقده طه حسين نقدا قاسيا فوصفه بأنه أديب بين
الأطباء ، طبيب بين الأدباء . وعلق المرحوم ناجى على هذا
النقد القاسي بنكتة فقال :

— أنا من هنا ورايح حاكون طول النهار مع « الدكتور »

طه حسين و « الدكتور » طه بدوى .. عشان أحس اننى

أديب .. هو مش قال على اننى أديب بين « الدكاترة »

لو جلس

وكان يحب الشاعر أبا نواس ويفضله على كل الشعراء
القدامى ، وكان يقول : إن أبا نواس نقطة تطور فى الطريق
الذى لا يقف ولا يجعد - طريق الفن - ويستشهد ببيتين من
شعره ليدلل على عظمته .. وفى هذين البيتين كان أبو نواس
يسخر سخرية مرة من أصحاب المذهب الاتباعى فى قرض

الشعر .. الذين يبدأون بذكر الأطلال والرسوم الدارسة ،
ويقضون الساعات الطوال وقوفا يكون على الذى كان .
قل لمن يبكى على رسم درس
واقفا ما ضر لو كان جلس

على على

وسأل شاعر شاب الدكتور ناجى عن رأيه فى شعراء
العصر الحديث .. فأجاب :

— أعظمهم شوقى .

وسأل الشاب :

— من يأتى بعده :

وفكر ناجى قليلا ثم قال :

— يأتى بعده .. على على .

وقال الشاب مستنكرا :

مين على على ده ؟

وأجاب ناجى :

— والله ما عرف ..

وهكذا عاش ناجى ساخرا متفكها يجتر أحزانه فى
صمت .. وأن كانت أحزانه قد طبعت شعره .. وحولته حتى
أصبح رمزيا .. يحلم بشيء لا يراه .. وهكذا أيضا غلب
التشاؤم واليأس على نظرتة للحياة .. وكان يراها تافهة
لا تستحق العناء . وكان يخشى الغد ويهابه فلم يكن يدرى
أن الغد سيكون حتما من نصيب الجماهير .. ولذلك لم يحاول
أن يشترك فى صنع الغد .. لأنه لم يكن يؤمن به ..
أن غدا هوة لناظرها تكاد الظنون ترتعد
أطل فى عمقها أسائلها أفيك أخفى خياله الأبد

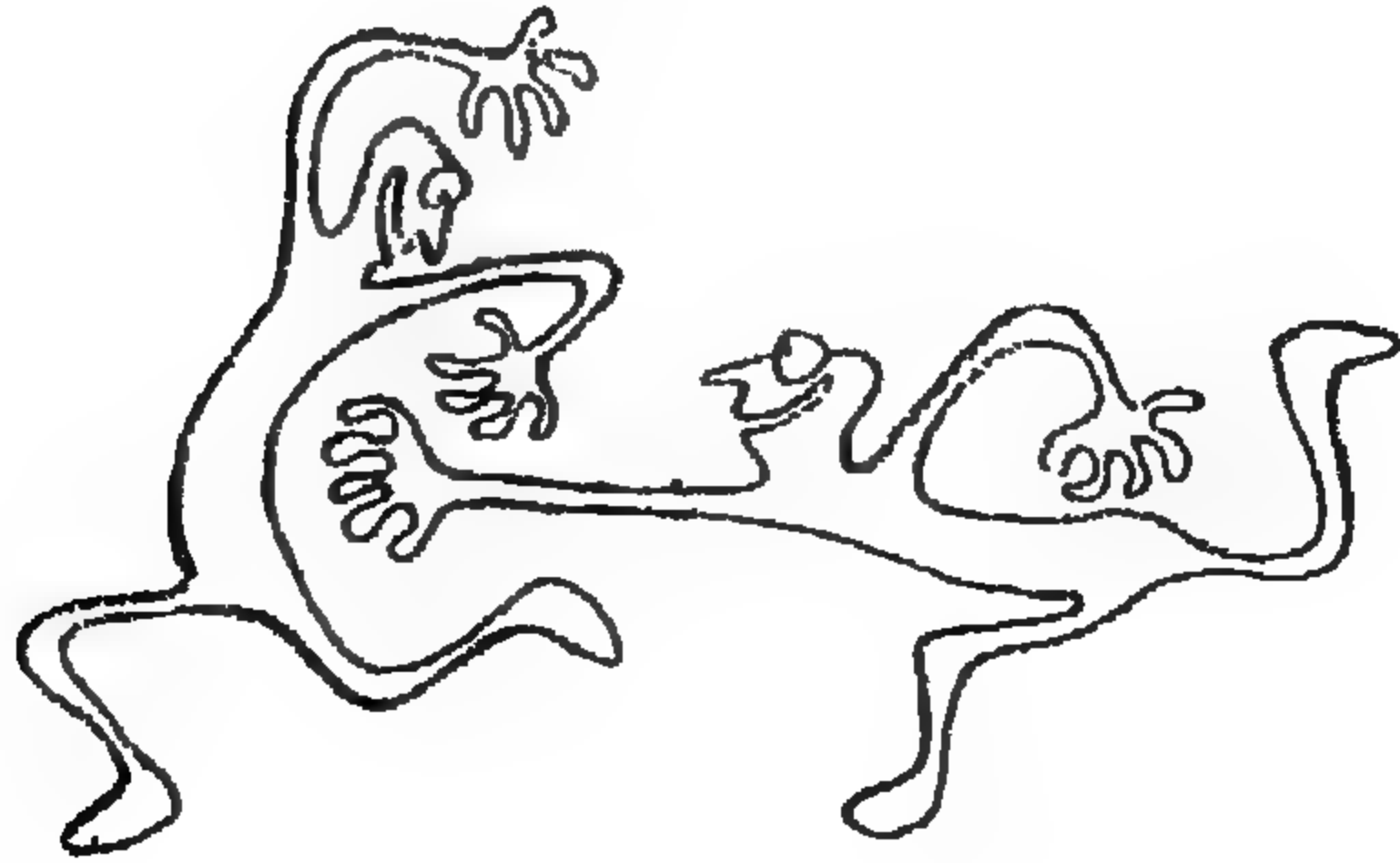
مش دكاترة

ومرض طويلا قبل وفاته .. وحز في نفسه أن المبلغ الذي ادخره طول حياته استنزفه الأطباء لعلاجه .. علاجه هو الأديب الطبيب الذي كان يفحص المريض ثم يشتري له الدواء والطعام ثم يمدده بشيء من المال أن استطاع وعندما شفى من مرضه قال ضاحكا :

كل ما جيب واحد دكتور ياخذ فلوس فلوس .. اللى ما لقيت واحد رفض .. يكونش احنا مش دكاترة .

النهاية

وعندما مات كان في عيادته يمارس عمله .. وفجأة سقط على الأرض يتلوى من الألم .. وقبل أن يسعفوه كان قد مات .. وذهب الشاعر الأديب الظريف إبراهيم ناجي . الرجل الذي قضى حياته كلها ، وإحدى عينيه مغلقة والأخرى نصف مفتوحة ، حتى مات ، فقد له أن يغلقهما .. وإن يستطيع فتحهما بعد ذلك أبداً .. فقد ترك من خلفه شعراً مثل عينيه لا يكاد يكشف ما في دنيا الناس من أوضاع خاطئة .. إلا قليلا .



● حفتى محمود



ربا المقالب .. حفتى

■ ■ استخدم حفتى محمود هذه
الموهبة ، موهبة صنع « المقالب »
فى كل مهنة عمل فيها . استخدمها
كسياسى واستخدمها كوزير ،
واستخدمها ككاتب ، وكصحفى
وكصديق ، وكان أولا واخيرا
يستخدمها كإنسان .

حفنى محمود

لا أدرى كيف أبدأ الكتابة عن حفنى محمود . هل أكتب عن حفنى محمود ابن الذوات ، سليل الأسرة القوية الثرية فى الصعيد .. أم عن حفنى محمود السياسى ذى النظرة البعيدة ، والقبضة السحرية التى تجمع بأطراف كل الخيوط . أم عن حفنى محمود الأديب ، صاحب الأسلوب الساخر ، والنظرة الواعية بكل ما يحيط بها من أمور ..

أم عن حفنى محمود رجل السلام ، أول (باشا) من أسرة كل أفرادها من أهل إقطاع ، وهواة حكم ، وهو يدعو للحب ، ويدعو للسلام . ويمجد الحرية ويهتف لها .. أم عن حفنى محمود صاحب « المقالب » المشهورة ، التى أضحكت الناس حيناً ، وأبكتهم أحياناً . وكانت خير إنتاج حفنى محمود الفنان .

الحقيقة اننى فضلت أن أكتب حياته من خلال هذه « المقالب » والسبب ، أن حفنى محمود كان فناناً . لم يجد رداً صادقاً يمكنه أن يرد به على أوضاع المجتمع المقلوبة إلا أن يسخر به ، وبأوضاعه ، وبمن صنعوا هذه الأوضاع . أن الذين صنعوا هذه الأوضاع حفنة من الناس تنتمى إلى طبقة هو أحد أبنائها !

ولكن ماذا يهم ؟ أنه ككل فنان يعمل ما يرضى الرجل الفنان . ثم بعد ذلك ، فليأت الطوفان .. ولكنه لا ينسى الذين استسلموا لهذه الأوضاع المقلوبة ، والذين ارتضوها . وهم

عامّة الشعب . ولذلك كانت سخريته من الجميع ، ومقالبه كان يقع فى شراكها ، أبناء الشعب وأبناء الذوات كذلك .

موهبة المقالب

واخترت أن أكتب حياة الرجل من خلال هذه المقالب لسبب آخر هو أن حفى محمود استخدم هذه الموهبة .. موهبة صنع « المقالب » فى كل مهنة عمل فيها .. استخدمها كسياسى ، واستخدمها كوزير ، واستخدمها ككاتب ، وكصحفى ، وكصديق ، وكان أولا وأخيرا يستخدمها كإنسان ..

وفى هذا الحيز الضيق سأحاول جاهدا أن أسرد بعض « مقالب حفى محمود » تاركا للقارئ استخلاص العبرة ، واستخلاص الموعظة ، واستيعاب ما تقطره من سخرية حمراء .. كالدّم ..

هيكل فيلم

فى أول عهد الوزارة الوفدية الأخيرة كان يتولى منصب مدير المطبوعات فى وزارة الداخلية زميل طيب جدا هو الدكتور عبد الباسط الحجاجى . ورفع حفى محمود سماعة التليفون وطلب الدكتور الحجاجى . ودارت بينهما المناقشة التالية :

— حضرتك عبد الباسط الحجاجى .

— أيوه يافندم .

— أنا مدير شركة هيكل فيلم .

— أهلا وسهلا .

— فيه والله قصة قدمتها الشركة من شهر ولم تخطرنا

الرقابة بعد بالموافقة ، مع أن شركة نحاس فيلم قدمت قصة

بعدنا ووفق عليها ، فالمسألة إذا كانت محسوبيات عشان نحاس فيلم بتاع رفعة الباشا وهيكل فيلم فى المعارضة ، يبقى المسألة لها وجه تانى ..

— لا يافندم مافيش محسوبيات أبدا .. وأنا كمان ماكنتش أعرف أن نحاس فيلم بتاع رفعة الباشا ، وكما ماكنتش أعرف أن هيكل باشا عامل شركة أفلام ..
— لا أهوه ده اللى حصل .

— طيب الصبح ان شاء الله ، رايح أطلب القصة بنفسى وأشوفها .

— متشكر ..

— مين اللى بيتكلم يافندم ؟

— هيكل باشا ..

وفى الصباح طبعا . طلب مدير المطبوعات قصة شركة هيكل فيلم ، وروى قصة المكالمة التليفونية بينه وبين هيكل باشا ، وكانت فضيحة كبرى .

مثل آخر

يدعو أحمد خشبة رئيس الوزراء محمد محمود إلى حفلة غداء فى بيته . ولا يدعو إليها بقية الوزراء . ويمسك حفى محمد سماعة التليفون ليتصل بالوزراء واحداً بعد آخر يدعوهم للغداء على مائدته .. مقلدا أصوات خشبة ، ويفاجأ خشبة وضييفه بجميع أعضاء مجلس الوزراء يفدون إلى دار خشبة قبل الغداء بدقائق . ويضرب محمد محمود المائدة بقبضة يده وهو يصرخ :
— عملها حفى ، عملها حفى « بضم الحاء » .

حيدر باشا

ويطلب إليه أحد تجار الخشب أن يتوسط له عند حيدر باشا ، وكان وقتئذ قائد عام القوات المسلحة . يطلب إليه أن يحدثه في أمر ابن شقيقته العسكري بالمشاه ، لكي يخلي سبيله .

وتصور أنت رجلاً يطلب إليك أن توسط له قائد عام القوات المسلحة في أمر يتصل بجندى نمر في سلاح المشاه .. وينسى حفنى محمود الحكاية كلها ، ولكن الرجل يتعقبه .. فى الصباح وفى المساء . وفى البيت وفى المقهى ، وفى الشارع وفى كل مكان ..

ويضيق حفنى محمود بالرجل فيعتزم أمراً وفى منتصف الليل أمسك حفنى محمود بسماعة التليفون وطلب حيدر فى منزله ، ودار الحديث الآتى :

— حيدر باشا

— أبوه ، مين ؟

— أنا عبد القادر جوده تاجر الخشب

— أى خدمة يافندم .

— أبوه ، عندكم الواد ابن أختى فى سلاح المشاه ، وعاوزك تديله أجازة .

ويفاجأ حيدر باشا بهذا الطلب الغريب من رجل لا يعرفه بعد منتصف الليل ، فيسأل المتحدث :

— حضرتك عاوز مين ؟

— حيدر باشا بتاع الجيش .

— وعاوزه عشان الحكاية دى ؟

— أه ، إيه يعنى .. كبير حيدر باشا ؟

— لا : ولا كبير ولا حاجة ، بس أقفل السكة ..

— أقفل السكة ياللى ...

وانتهت المحادثة . ولكن بعد أن استمرت ثلاثة أيام متتالية وفي نفس الموعد .

ثم طلب حفنى من تاجر الأخشاب أن يذهب لمقابلة حيدر فى مكتبه بقصر النيل .. ويفرح الرجل ويذهب . كانت الساعة قد بلغت الواحدة ظهرا وحيدر فى مكتبه عاكف على دراسة بعض الشئون الهامة ، حين دخل سكرتيه ليقول له ، أن بالخارج تاجر أخشاب اسمه عبد القادر جوده ، ويريد مقابلتك .

ويقفز حيدر عند سماعه الاسم .. ونام تاجر الخشب عشرة أيام فى المستشفى بعد ذلك ، وكانت درسا قاسيا لن ينساه .

المؤلف العظيم

ورجل آخر يطلب من حفنى محمود أن يقدمه إلى أحد الأمراء السابقين ليتولى طبع كتاب له ضد حزب الأحرار الدستوريين (ولاحظ أن حفنى محمود من الأحرار) ويعتذر حفنى محمود ولكنه يعطى للرجل الرقم السرى لتليفون الأمير ويطلب إليه أن يحدثه فى الأمر .

ويتصل المؤلف بالأمير ، ويطلبه الأمير فى الحال ليطلع على أصول الكتاب ، فقد كان الأمير وقتئذ خصما لمحمد محمود ، وبين الاثنين عداوة شديدة .

ويطير الرجل من الفرحة ، ويهرول إلى قصر الأمير ويمسك حفنى محمود بسماعة التليفون ويتحدث إلى الأمير على النحو الآتى :

— ألوه ، أفندينا .

— أيوه ، مين .

— أنا المؤلف اللى كلمت سموك من دقيقة .
— أيوه ، عاوز أيه تانى ، أنا قللتك تعال ..
— لا فيه حاجة واحدة بس عاوز أقولها وهى إنك حمار
ومغفل . وانك تتمتع بأخلاق عرجية مش أخلاق أمراء .
ويرطن الأمير بكل لغات الأرض سبا فى صاحبنا المؤلف
المظلوم ..
— خرسيس ، كلب بن كلب ، أوعى تيجى ، أحسن
اقتلك ..
— لا ، وأنا هاجى رغم أنفك عشان أقول الكلام ده فى
وشك ..

وينهى حفى محمود المناقشة عند هذا الحد .
كل هذا ، وصاحبنا المؤلف يهرول سعيدا الى قصر
الأمير ، وعندما بلغه كانت الساعة الخامسة بعد الظهر ،
وكان أمام الباب أكثر من عشرة رجال سود من خدم القصر ،
وفى أيديهم مقشات وعصى ، وأشياء أخرى ، فقد أمرهم
بضرب المؤلف علقه ساخنة عندما يصل .
وما كاد المؤلف المسكين يلفظ باسمه حتى انهار جميع
الخدم عليه ضربا وركلا حتى فقد وعيه .. وحتى أصول
الكتاب مزقتها الرجال السود .

السـر الحقيقى

وخلال الأزمة التى نشبت بين عبد الفتاح الطويل ووزارة
الوفد الأخيرة ، طلب حفى محمود رئيس تحرير إحدى
الصحف اليومية الكبرى ودار الحديث الآتى :
— ألو . أنا الطويل فيه مقال أرسلته للجريدة منذ دقائق
وسيصلك حالا بعنوان .. « السـر الحقيقى وراء الأزمة
الوزارية » .

ويفرح رئيس التحرير للنصر الصحفى الكبير ثم يعود
حفنى محمود إلى الحديث فيقول :

— بس والله قبل النشر تبقى تعرضه علينا .

— حاضر يا قندم .

— وهكذا أعد المقال للنشر فى الصفحة الأولى . وفى
الساعة الثالثة صباحا دق جرس التليفون فى بيت عبد الفتاح
الطويل وكان المتحدث هو رئيس التحرير .

— عبد الفتاح باشا : صباح الخير .

— صباح النور يا قندم ، إيه الحكاية .

— المقال بتاع معاليك أعد للنشر خلاص .

— مقال إيه ؟

— المقال اللى بعته .

— أنا ماكتبش مقالات خالص . بعنوان إيه ده ؟

— « السر الحقيقى وراء الأزمة الوزارية » .

وينتفض عبد الفتاح الطويل من الغيظ ويصرخ فى وجه
رئيس التحرير :

— لا .. أنا رايح أبلغ النيابة .

ويقدم فعلا بلاغا للنائب العام .. ولم يظهر المقال
بالطبع .. وكشف التحقيق أن صاحب المقال هو حفنى
محمود ..

أخطرها جميعا

ومن هذا النوع عمل حفنى محمود مقالب كثيرة ولكن
أخطرها جميعا كان فى منزل أحمد الألفى عطية . وكان
سيروح ضحيته صاحب المنزل .. لولا الصدفة وحدها .
كان حفنى محمود يسهر مع الألفى عطية فى منزله . وكان
معهما كامل الشناوى ويوسف الشريعى . وفى الثالثة اعتذر

الشريعى عن اضطرابه لترك السهرة لأن فى منزله ضيوفا
من أسرة السعداوى ، أقوى القبائل العربية فى الأقليم ..
ويخرج الشريعى ، فيتصل حفى محمود بمنزل الشريعى
فيرد عليه واحد من الضيوف ، أفراد أسرة السعداوى .
ويقول حفى محمود :

— مين انت ، ادينى واحد مهم شوية ، واحد مهم شوية
من فضلك ، ويأتى زعيم السعداوية ليرد عليه :
— إيه الحكاية .

— يوسف الشريعى مات ، الرجل اللى اسمه الألفى
عطية ضربة بالنار دلوقت فى البيت اللى قصادكم على
طول ..

ويخرج أفراد أسرة السعداوى جميعا مسلحين ،
ويحاصرون بيت الألفى ، فقد قرروا قتله . لولا أن عاد
الشريعى مرة أخرى إلى منزل الألفى عطية بعد أن ذهب إلى
منزله فلم يجد أحدا من الضيوف ، وظن أنهم سافروا إلى
الصعيد . ولكنه فوجئ عند عودته إلى بيت الألفى عطية
بالضيوف جميعا يحاصرون المنزل ، وهم على أتم الاستعداد
لقتله عندما يهم بالخروج .

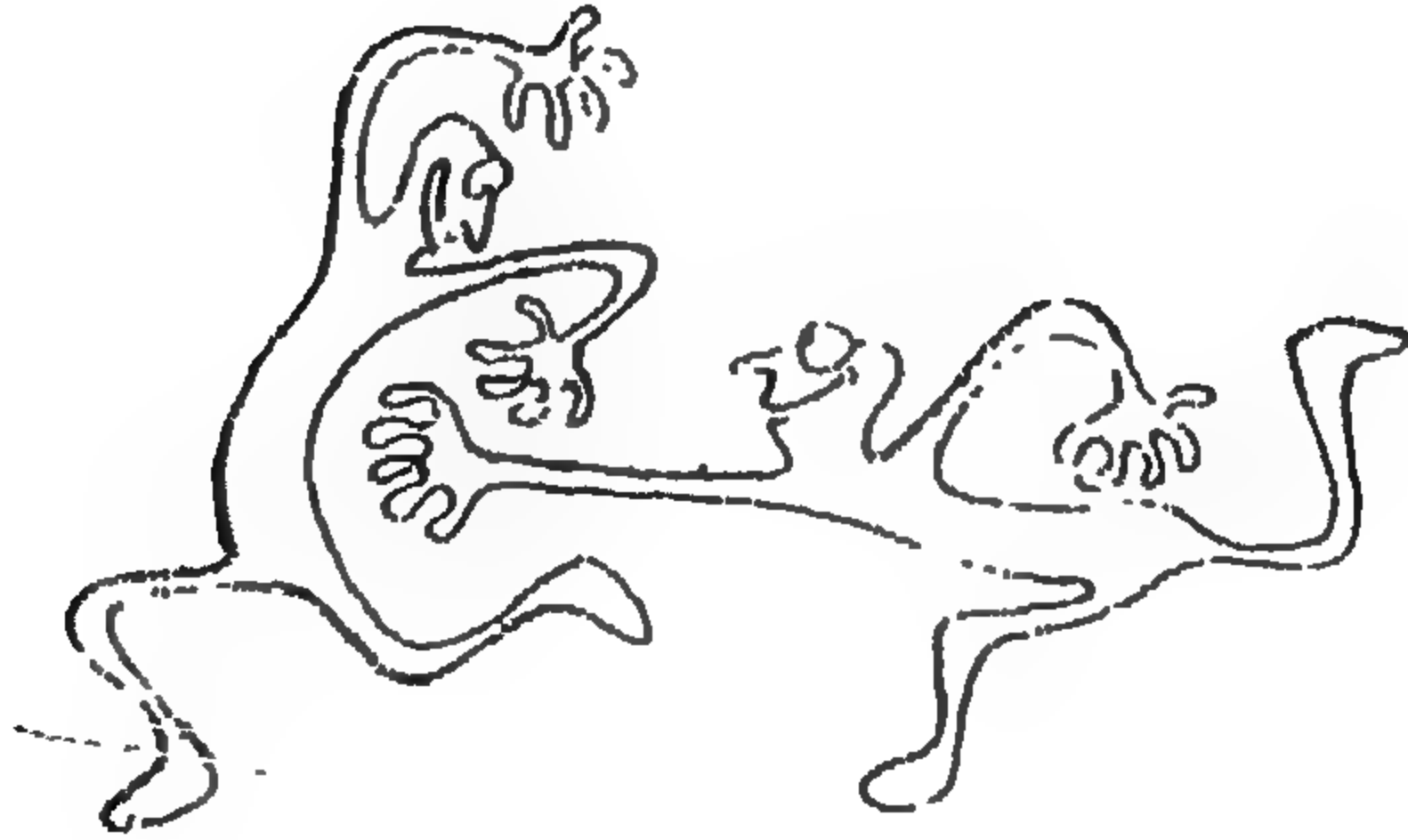
إلى دسوق

وبلغ من جبروته فى هذا الفن أنه استطاع أن يقنع رجلا
صاحب صيدلية بالنوم فى فراش أحد المستشارين . وأن
يفرق بين حافظ محمود وصديقه محمد الأسمر عاما ، وأن
يقنع محمد محمود بضرورة تعيين أحد القضاة بالمعاش
وزيرا ، لأن حفى محمود كان يتضايق من وقاره الشديد
أثناء جلسته فى بار اللواء ، وأن يتفق مع طه الفشنى وبطانته
بإحياء ليلة مولد فى دسوق ، ويسافر الشيخ الفشنى ومعه

البطانة إلى دسوق فلا يجد أحداً بهذا الاسم الذى انتحله
حفنى محمود .. عبده بك دبور .. ولكن حفنى محمود الإنسان
يرسل فى اليوم التالى بمبلغ خمسين جنيهاً للشيخ الفشنى ،
نفس الأجر الذى اتفقا عليه بصفته عبده بك دبور .
وهكذا عاش حفنى محمود إلى آخر أيام حياته يضحك من
الناس ويضحك عليهم .. وكان يحب الليل .. فكان يسهره كله
ولم يحدث أن أوى إلى فراشه قبل إشراقة الصباح .

النهاية

وكما عاش خفيفاً كالفراشة .. مات فجأة كالخيال . وهكذا
خبا الضوء فى العيون الذكية . وجفت الابتسامة على الفم
الذى لم يعرف فى حياته إلا الابتسام .





● ابراهيم عبد القادر المازني

المازني .. ثالث الفرسان

■ ■ المازني الضاحك خير من يقول النكتة
حتى ولو كانت على نفسه .. فهو
الذي أطلق على نفسه وعلى الاستاذ
العقاد رقم (١٠) فالعقاد طويل ،
مفرط في الطول كرقم واحد ،
والمازني قصير مثل الصفر .

ابراهيم المازنى

ثلاثة فرسان ظهوروا فى عالم الأدب فى مرحلة دقيقة خطيرة .. مرحلة انتقال من عصر يقلد ويحاكى ويتمسك بالإطار القديم دون الموضوع ، لأن الموضوع لم يكن له وجود فى أدب المدرسة الاتباعية ، ثم جاء الفرسان الثلاثة فى هذه المرحلة الخطيرة التى أخذ الأدب فيها ينسلخ من أرويته القديمة ، إلى عالم جديد يهتم بالمضمون ويعنى بالتعبير عن النفسية الفردية ، والنفسية الجماعية على السواء وكان الفرسان الثلاثة هم : عبد الرحمن شكرى وعباس انعقاد ، وإبراهيم عبد القادر المازنى .

حياة صحفى

وعاش المازنى حياته يكتب ويؤلف ويترجم ويشغل بالصحافة ، وكان المازنى قبل ذلك يعمل مدرساً ثم ناظراً لمدرسة ثانوية حتى قامت الثورة المصرية عام ١٩١٩ فنزل المازنى إلى الميدان بقلمه ، يكتب كل يوم مقالا من ثار فى صحيفة « الأخبار » مع الاستاذ أمين الرافعى ، وعندما توقفت « الأخبار » عن الصدور عام ١٩٢٥ ، وقف المازنى حياته على الكتابة والتأليف واشتغال بالصحافة حتى مات فى أغسطس عام ١٩٤٩ .

وحياة أديب

وبين أغسطس عام ١٨٩٠ ، وهى السنة التى ولد فيها المازنى وأغسطس عام ١٩٤٩ عاش المازنى حياة ثائرة قلقة شديدة التأثير والانفعال .. وكان المازنى ساخراً .. ساخراً بالأوضاع ، ساخراً بالقيم المتحجرة التى صنعها بعض البشر ..

ومن خلال هذه السخرية ولد أدب المازنى الخالد .. خالد لأن أدبه كان مصرياً ، فيه بساطة المصرى ومرحه وإيمانه الشديد بالقضاء والقدر .

وهذه النقطة بالذات - الإيمان الشديد بالقضاء والقدر - أخذها الكثيرون على المازنى وهاجموه طويلاً ورموه باليأس ، ولكن هؤلاء المهاجمين نسوا أو تناسوا أن المازنى كان أصدق أدباء العصر الذى عاش فيه ..

صديق الجميع

ولعل سر سخرية المازنى .. صورته .. فقد كان قصيراً نحيفاً أعرج من أثر حادث قديم .

ولعل أصدق وصف للمازنى ما كتبه هو فى مقدمة روايته الطويلة « إبراهيم الكاتب » فقال :

إننى سمح متواضع ، قانع ، سلس عطوف ، مغتبط بالحياة ، راض عنها قانع بها ، أتلقى الحياة بغير احتفال ، وافتر للدنيا عن أعذب ابتساماتى ، وأحس السرور يقطر من أطراف أصابعى كالعرق .

وكان شغوفاً جداً بكتابات الكاتب الأمريكى الساخر مارك توين ، واستطاع المازنى أن يجد لسخريته اللاذعة مجالا من المضمون المصرى الذى يعيش فيه ، فجاءت قصصه مصرية صميمية - بالنسبة لعصره - وأيضاً بالنسبة لما ظهر

قبله ، قصة « زينب » لهيكل ، و « حديث عيسى بن هشام »
لمحمد المويلحي ، وساعده اشتغاله بالتدريس فترة طويلة
على مخالطة الناس والاحتكاك بمختلف البيئات ، وملاحظة
الأفراد ومراقبة سلوكهم ، ولذلك تعتبر قصص المازاني مرآة
للعصر كله .

مدرسة المازني

ولعل انتاج المازني يعتبر القاعدة التي استند إليها كتاب
القصة من الشباب في جيلنا المعاصر ، وعناوين قصصه
تدل على مدى التجديد والجرأة في التجديد كذلك ،
« ع الماشي » ، و « ميدو وشركاه » ، و « على الحديد » ،
و « الدكان » ، ويقحم العامية في الأسلوب العربي أحيانا .

الوصف الصادق

والمازني أيضا كان أصدق الكتاب في وصفه ، ولم يصف
الشمس مثلا بأنها كطبق من الذهب ، بل كان يعتمد اختيار
وصفه من محيطه من الأشياء التي تقع عليها عيناه .
انه يقول مثلا : « أقدم من هرم خوفو » ، « معدتي طاعة
في السنة كمخلاة قديمة » ، « أشكال إيس لها معارف كدرهم
المسيح » .

وهو يصف زنجية فيقول :

فكانها زير عليه أبريق مقلوب فوقه كرة ذات ثقب ، وهو
يصف الزواج فيقول :

« الزواج يشبه لبس الحذاء ، والأعزب كالذي اعتاد
الحفا » .

وهو في كتاباته سريع النكتة ، جملة قصيرة متلاحقة مثل
طلقات الرصاص ، تماما مثل مارك توين وأوسكار وايلد :

«وكانت لا تريد أن تتزوج ، وصدقت فما تزوجت لأنها ماتت » .

« كانت مشاكله كثيرة ، حتى أنه كان لا يملك إلا أن يبدو سعيداً » .

« كان شديد السكر ، حتى أنه كان يمشى متزناً » .

رقم ١٠

وعندما نترك المازنى الأديب ، نرى المازنى الضاحك خير من يقول النكتة ، حتى ولو كانت على نفسه ، فهو الذى أطلق على نفسه وعلى الاستاذ العقاد رقم ١٠ ، فالعقاد طويل ، مفرط فى الطول كرقم ١ ، والمازنى قصير مثل الصفر .
وحدث مرة أن هوجم المازنى والعقاد وواحد من أسرة النشاشيبي فى مدينة القدس ثم أطلق عليهم مجهول النار ثم انطلق هارباً ، وأثناء إطلاق الرصاص انطرح العقاد أرضاً ، وأطلق النشاشيبي ساقيه للريح ، وبقي المازنى مكانه ، وسأله بعد ذلك عن سر ثباته أمام الرصاص فأجاب :
— أنا خفت أجرى .. الراجل يشوفنى ! ..

القصة بقرش

وكتب مرة فى مقدمة كتاب له يحوى عدة قصص قصيرة يقول :

« يحوى هذا الكتاب عشر قصص قصيرة ، سهرت فى كتابتها الليالى الطويلة ، ولقيت فى طبعها عنتاً وأرهاقاً ، وقدمته لك أيها القارئ بعشرة قروش ، أى أن القصة الواحدة لا تساوى إلا قرشاً واحداً » .

لتقوية الطرق

وروى مرة أنه ذهب إلى طبيب أذن يشكو إليه من صمم

جزئى ألم به ، ودلل للدكتور على صحة شكواه بأنه لا يسمع
جيذا الطرق على الباب ، فوصف له الطبيب دواء مقويا
للسمع ، وبعد فترة طويلة سأل الطبيب عن حاله ، فأجاب
على الفور :

— أبدا ، ودانى زى ما هية ولكن باسمع الخبط على
الباب كويس ، يظهر أن الدواء بيقوى الخبط !

إعمله بالطو

وحدث أن اشترى العقاد صديريا جميلا من فلسطين ،
ورآه المازنى فأعجب به جدا ، فقال للعقاد :
— أنت لازم تجيب لى صديرى المرة الجاية ، أعمله
بالطو ..

داس على طربوشى

ودخل المازنى مرة مذعورا داخل « دار الهلال » يسأل كل
من يلقاه :

— ما فيش واحد طويل دخل هنا ؟!
ولما سألوه عن سر لهفته فى السؤال عن الرجل الطويل
أجاب :
— أصله خلانى ماشى وداس على طربوشى .

ملاها منى

وأعطى ساعته لساعاتى « يملؤها » له ، وبعد أن تسلمها
اكتشف انها ما زالت على حالها تؤخر تارة ، وتقدم تارة
أخرى ، فقال المازنى :
— الراجل أدبت له الساعة يملأها ، يظهر أنه ملاها
منى ..

نسخة

وأهدى مرة نسخة من كتابة الى أحد الأصدقاء ، ووعده الصديق بقراءته ، ثم مضت فترة طويلة والصديق يعتذر عن عدم قراءته ، وقابله المازنى ذات يوم ، فسأله فى جد بالغ :
— أنت كنت بتعوم فى النيل امبارح ؟
— ليه ؟

— أصلى لقيت نسخة من كتابى فى الميه ! .

عشان العيل

وجاء مرة المازنى إلى بعض أصدقائه فقال لهم فخوراً :
— تعرفوا النهاردة أنا حميت فلان من « علقه » كان راح يأكلها ..

وتسأل الأصدقاء جميعاً فى دهشة :

— ازاي ؟ ..

— أنا ماشى مع فلان واتشاكل مع واحد تانى ، والراجل حلف لازم يضربه « علقه » لحد ما يموته .

— وبعدين ؟ ..

— وبعدين الراجل بص ناحيتى وقال :

— طيب حاسييك عشان خاطر العيل اللى معاك ..

الأديب والإنسان

وهكذا كان المازنى الإنسان ، خفيف الظل ، حلو النكتة ، حاد السخرية مثل المازنى الأديب ، غير أن المازنى الأديب لازمته مسحة من التشاؤم جعلته يقول فى مقدمة كتابه « حصاد الهشيم » :

ما مصير كل هذا الذى سودت به الورق وشغلت به المطابع ، وصدعت به القراء ؟ .. إنه كله سيفنى ويطوى

بلا مرأى ، فقد قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد ،
وأن يشتغل أبنائه بقطع هذه الجبال التى تسد الطريق ،
وتسوية الأرض لمن يأتون من بعدهم .

ومن الذى يذكر العمال الذين سواوا الأرض ومهدوها
ورصفوها ؟ .. فلندع الخلود إذن ، ولنسأل :

— كم شبرا مهدنا من الطريق ؟

ولكن هل هذا كلام متشائم .. ؟

أبدا ، أنه من خلال تشاؤمه يبدو متفائل النظرة إلى
المستقبل واثقا كل الوثوق من سعادة الأجيال المقبلة ،
فخوراً بالاشبار التى مهدها فى الطريق الشاق الطويل نحو
المستقبل الزاهر .

ويكفى المازنى أنه مات بعد أن مهد شوطا طويلا ،
واستطاع بحق أن يصبح على رأس كتاب القصة الطويلة
والقصيرة فى بداية القرن العشرين ، ويكفيه إنه مهد الطريق
لغيره ..

وصحيح أن المازانى مات ..

ولكن ، بقى انتاجه ، وظلت البشرية وستظل ، سعيدة
بانتاجه ، مقدرة للاميال الطويلة التى مهدها من الطريق .

* * *

كوكثيل .. من التاريخ

■ ■ ضاق بالحياة وبالناس فاعتزل العالم
وانزوى وحده يجتر مضيره في
صمت ، ولم يلبث ان ضاق بنفسه ،
فراح يهاجم نفسه بعنف .. !

شفيق المصري

رثاه أحد الكتاب بعد موته فقال : « أخيراً مات الرجل الضاحك ، وانطبق الفم الذى لم يفارقه الابتسام ، فكان يتحدث مبتسماً ، وياكل مبتسماً ، وينام مبتسماً ، ويبكى مبتسماً ، واغلب الظن انه لقي عزرائيل بنفس الروح التى كان يلقي بها الحياة .

ولم يكن هذا الرجل .. إلا حسين شفيق المصرى ، ولقد كان حسين شفيق المصرى مدرسة فى فن السخرية ، سخر من كل القيم التى كانت تسود عصره ، سخر من كل الأوضاع ، وسخر من الناس ، وسخر من نفسه ، وسخر من النظام ، وسخر من القانون ، وغالى أحياناً فى سخريته ، فانقلبت إلى تهريج .

ولكنه كان بالرغم من ذلك ، أبرع من استخدم النكتة كسلاح وأعظم من عالجها كفن .

سيبويه المصرى

ولقد تألفت وتبلورت فى حسين شفيق المصرى روح مصر على مر السنين .. فهو سيبويه المصرى الذى كان يطوف الأسواق ممتطياً حماراً يخطب فى الناس ساخراً بكافور ، وهو الأسعد بن مماتى الذى ألف الفاشوش فى حكم قراقوش ،

وهو ابن سودون المصرى الذى أضحك الناس وأبكاهم أيام
المماليك ، وهو امتداد ليعقوب صنوع وقبس من شعلة
النديم ، ومزيج من البشرى ، والعبد ، والبالى ، وكل من
سبقوه .. ولكن هذا التأثير الساخر سقط سقطة شنيعة لم يهو
إليها أحد .. فكان من أعنف الذين هاجموا سعد زغلول ،
وكان ميدانه مجلة « الكشكول » .

ولو أننا نظرنا إلى هذه السقطة من زاوية أخرى ، لراعنا
شئ غريب .. فهذا التأثير الساخر الذى اختار طريقا معاديا
للشعب ، قدر له أن يكون الرجل الوحيد فى مصر الذى يكتب
هجويا مرا ضد سعد زغلول ، ومع ذلك يقرأه الناس ، حتى
أخلص رجال الوفد ، وحتى أخلص شبابه حماسا وإيمانا
به .. وهنا تبرز عظمة حسين شفيق المصرى كفنّان ..
ولقد كان سعد زغلول يتمتع وقتئذ بشعبية ساحقة ماحقة
حتى لقد قال البعض : كانت إشارة واحدة من سعد ، تكفى
لإشعال نار الثورة ، وإشارة أخرى تكفى لإخمادها ، وكان
سعد ساحر الشخصية عملاق الزعامة ، كلماته أوامرواوامره
قوانين وخطبه أقدس من المعلقات السبع ، وكانت أعظم
الصحف انتشاراً تقتلها إشارة عن سعد وأعظم الأفكار قوة ،
تسحقها كلمة من سعد . وعندما اصطدم فن شفيق المصرى
بزعامة سعد زغلول ، كان الصدام رهيبا ، ولكنه أثبت على
أية حال أن الفن الأصيل أقوى من الزعامة ، وأمضى سلاحا
من كل أسلحة الزعيم ..

ففى الوقت الذى كانت فيه الجماهير تحتشد فى فناء بيت
الامة تستمع مشدوها إلى خطبة الزعيم .. كان كل فرد منهم
يخفى بين طيات ملابسه نسخة من مجلة « الكشكول » ليقرأ
فيها بعد الانتهاء من سماع خطبة الزعيم « نكت » حسين

شفيق المصرى عن الزعيم نفسه .

ولكن من هو حسين شفيق المصرى ؟ .. ومن أين جاء هذا الفتى الطويل النحيل صاحب الملامح التركية ذو اللسان الطويل .. أغرب شيء ، أن حسين شفيق المصرى ليس مصرياً ، وهى ظاهرة غريبة أن يكون أعظم اثنين كتباً اللغة العامية واستخدمهما كما لم يحدث من قبل ولا من بعد ، أغرب شيء ين يكون هذان الاثنان ليسا مصريين .. فأحدهما تونسى وهو محمود بيرم التونسى ، والثانى تركى .. وهو حسين شفيق المصرى .

ابن البلد

كان أبوه محمد بك نور نموذجاً للتركي المتعجرف المتلاف ، كان يملك عزبة فى قليوب .. وعندما مات ، كان قد فقد كل شيء تقريباً .. الأرض ، والقصر ، والخيول .. وذهب إلى القبر ، وكل حصيلته فى اللغة العربية عبارة كلمات لا تكفى لتكوين جملة مفيدة ، وكانت أمه إقبال هانم جارية أخذت ضمن السبائيا فى حرب المورة وبيعت فى مصر واستقرت فى قصر الأميرة أمينة هانم أم الخديو عباس ، ومن هذا الخليط اليونانى التركى ، جاء حسين شفيق المصرى .. أعظم ابن بلد مصرى ظهر فى النصف الأول من القرن العشرين .. ولقد كانت حوارى الدرب الأحمر ومقاهيه وأسواقه والأزقة المتفرعة منه والشوارع الضيقة التى تصب فيه هى وحى حسين شفيق المصرى والهامة .. فهو صديق سيد المكوجى ، وجليس عم أمين القهوجى ، وجار حنفى الكمسارى ، وحسنين العسكرى ، ومن هؤلاء الناس تزود حسين شفيق المصرى بثقافته الشعبية ، ومن دواوين شعر

امرىء القيس ، وطرفة ، والأعشى ، وجريز ، والفرزدق ،
والمتنبى ، وابن الرومى ، والجبرتى ، وأبى العلاء .. تزود
بثقافته العربية ، ومن هاتين المدرستين استحدث حسين
شفيق المصرى فنه الخالد الرفيع ..

وبينما كان يجلس فى أول الليل فى بار فقير فى سوق
الخضار ويوزع الكئوس والنكات على الحاضرين ، كان
يقضى آخر الليل يجمع أوزان الشعر المهجورة بتكليف من
أمير الشعراء أحمد شوقى .

وعلى هذا الازدواج ، سيظل حسين شفيق المصرى
أبدا .. فهو حجة فى اللغة العربية ، وهو عالم فى اللغة
العامية ، وهو من أسرة غنية ، وفقير يتضور جوعا ، وهو من
أم يونانية ، وأب تركى ، وهو نفسه ابن بلد قاهرى .. تربية
أرصفة ومقامى تعبق برائحة الحشيش ، وهو محرر بجريدة
الجوائب التى كان يصدرها خليل مطران ، ومحرر بجريدة
« مصر » وفى الوقت نفسه فى مجلة « الشجاعة »
و « الخلاعة » و « المسامير والسيف » وهو مؤلف متزحى
كتب روايات جديدة لمسرح نجيب الريحانى ، وهو شاعر
ماجن ، متفرغ لكتابة الشعر « الحلمنتيشى » وهو يكتب ضد
سعد زغلول فى مجلة « الكشكول » ويكتب مع سعد زغلول فى
مجلة « الصاعقة » وهو يربح آلاف الجنيهات ، ويموت وليس
فى جيبه مليم .

ولقد دخل حسين شفيق المصرى التاريخ بمشعلقاته
السبع .. على وزن المعلقات السبع .. وكانت أبرزها مشعلقته
الشهيرة التى عارض بها معلقة طرفة بن العبد التى مطلعها :

لخولة أطلال ببرقة تهد
يلوح كباقي الوشم فى ظاهر اليد

والذى لاشك فيه أن حسين شفيق المصرى كتب
مشعلاته ليس بغرض التقليد والمحاكاة وإضحاك
الجمهير ، ولكن هذه المشعلات كانت تحمل رأيه فى هذه
القصائد التى أنفق الشعراء عمرهم فى صياغتها .. استمع
إليه يقول فى مشعلته الشهيرة :

لزينب دكان بحارة منجد
تلوح بها أقفاص عيش مقدد
وقوفا بها صحبى على هزارها
يقولون : لا تقطع هزارك واقعد
أنا الرجل الساهى الذى تعرفونه
حويط ، كجن العفلة المتلبد
فمالى أراى وابن عمى مصطفى
متى أدن منها بنا عنها ويبعد
يقول وقد القى الرغيف وسابنى
الست ترى جوزها عويس بن أحمد
فلما تناسشنا البغداة وهزرت
معانا ، وأعطتنا بارولا بموعد
رات زوجها يدنو فغطت «بزازها»
بشال طويل «كالملاية» أسود
وقالت : يا لهوى جتكم نيلة امشوا من هنا
أفندية أيه دول ؟ جوزى شايف دا شىء ردى
فأقبل زوج البنت يلعن أمها
ويسعى البنا «بالمسداس» المهربد
فلا خير فى خبص ترى الضرب بعده
ولا هاجم يسأتيك بعد الترصد
ستبدي لك العصيان ما كنت جاهلا

ويأتيك « بالمركوب » من لم تهدد
ومن قصائده التي سماها « المشهورات » قصيدة نظمها
على نهج قصيدة « ابن الخياط » التي يقول فيها :
خذا من صبا نجد أماما لقلبه
فقد كان رياها يطير بلبه
قال حسين شفيق المصرى :

ولم ينه عنها الزمان ولا النوى
ولم يلهمه عنا تقزير لبه
فبات ينجى النجم طول ليله
ويشكو إلى الحيطان شدة غلبه
وهل يشتكى الناس مدقع فقره
وقد جاع يشكو من فداحة حبه
وقد تعبت عزاله فى غرامه
وتعب أصحاب الفلوس بنصبه
ويا ويحه اذ يصبغ الشعر
تلفمطه حتى تنادى بشييه
ومن يك ذا شيب ويصبغ فإنه
إذا قال صدقا زيفوه لكذبه

* * *

ولقد ظل حسين شفيق المصرى يتدحرج طول حياته
ويتقلب فى مهن كثيرة ، من كاتب محام إلى مصحح فى
الجرائد إلى زبون دائم أحيانا فى مقاهى القاهرة وعلى
أرصفتها الشهيرة ، ومن خلال هذه المهن الغريبة استطاع
العبرى أن يرى الحياة كما لم يرها أحد من قبل .. فقد كانت
له مهنة واحدة غير رسمية ، هى مراقبة الناس وملاحظة
عاداتهم الرديئة ، واستطاع أن يقدم للأدب الشعبى

المصري شخصية خالدة « لابن البلد » الجاهل المتعافى
« الحاج درويش » و « لست المصرية » المشاكسة
المشاغبة « أم اسماعيل » ، وكان كتابه « الحاج درويش »
والست أم اسماعيل « هو خير كتبه وأكثرها صوتا وحرارة
وفهما بطبيعة الروح المصرية على الإطلاق .

وكان حسين شفيق المصري عالما باللغات ، لهجة
الصعيد ولهجة الفيوم ، ولهجة المنوفية ، ولهجة
الاسكندرية ، ولم يقتصر علمه على معرفة اللهجات المحلية
المنتشرة فى أقاليم مصر الكثيرة .. بل تعدتها إلى خارج
الحدود .. وقد هب فجأة ذات مرة لينقد بأسلوبه الساخر
المزيج انتشار اللغة الفرنسية بين أهل لبنان العرب .. فكتب
خطابا من لبنانى إلى آخر « موناى مجاعص .. بعد
السلام .. أعرفك يا مون فرير أن الهيجين تبعى تربيان ..
وفقط عندى جراند زعل من حكم الفرنساوى .. وبيكون بعلمك
أنى دومان رايح شان أشوف حال المون بير وأكتب لك ليتر
بالإيروبلان ..

ما قل .. ودل

وخاض حسين شفيق المصري ميدان الزجل وما قل ودل
هو خير عنوان يمكن أن نطلقه على أزجاله .. فقد كان مثلاً
فى هذا الميدان لسبب لا ندرية .. والملاحظة الغريبة انه
كان يفر إلى ميدان الزجل كلما اشتد الإرهاب فى مصر
واشتدت قبضة الرقابة على الصحف الوطنية . وبرغم أنه
كان ضد سعد زغلول وكان ضد الوفد المصرى بحكم أكل
العيش إلا أنه كان فى الحقيقة وطنيا وثائرا ..

ذلك أنك لا تستطيع أن تكون ساخرا إلا وأن تكون تائرا
فى الوقت نفسه .. لأن السخرية لون من ألوان الثورة ..

يقول حسين شفيق المصرى فيزجل رائع :
أول ما تبدى القول نصلى على النبى .
نبينا محمد جانا بالإسلام .
يقول أبوزعيزع وله قول صادق
براهينه ظاهرة والأدلة تمام
يا بوزيد أنا بوى دياب بن غانم
يناوش العدو ومايتركوش ينام
لحد ما نمشى من البلد دى ونرحل
دى عيشتنا فيها يا بوزيد حرام
تعالى نروح من مصر نقصد تونس
نشوف فيها أقوام غير دى . الأقوام
دى مصر يا بويه بلاد . العجايب
وخيراتها للأرمن والأروام
وللانجليز رخرين ولكن خايف
أروح بكلامى شخة فى حمام

ولقد عاش حسين شفيق المصرى حياة أقرب ما تكون إلى
حياة أبى نواس .. أعزب لم يتزوج .. سكير لا يفيق .. مبذر
أنفق نقوده وأنفق صحته وأنفق أيامه فيما لا يفيد ولو أنه
تفرغ للمسرح .. لكان لدينا الآن تراث مسرحى كوميدى من
أعظم طراز .. ولو أنه القى بنفسه فى خضم الثورة ..
لاستطاع أن يصنع مع بيرم التونسي انقلابا فى مصر
ولاستطاعا معا أن يصوغا الحياة فى مصر كما يحلم بها
الثوار .. ولكنه لم يتفرغ لشيء ولم يهدأ ولم يستقر .. وظل
يتدرج من أعلى إلى أسفل حتى وصل إلى القاع . ولكن فنه
الأصيل رغم الضياع كان يشده دائما الى الحياة التى تموج
من حوله .. ينقد مظاهرها المختلفة نقد فنان أصيل .

وفى نهاية أيامه رفع هراوة ضخمة وهوى بها على رأس
الحكومة التى كانت قائمة وقتذاك ..
ان الفنان حسين شفيق المصرى ينتقدها وينقد رجالها
ونظمها وتقاليدها .. فيبتكر شخصية الشاويش شعلان
عبد الموجود .

الشاويش شعلان

ومن خلال المسكين شعلان .. انصبت هراوات شفيق
المصرى على كل ما فى الحياة من تناقضات بشعة وقيم
زائفة . ويكتب شفيق المصرى على لسان الشاويش شعلان
محضر التحقيق الحكومى .

« فى تاريخه أدناه وأعله .. أنا الشاويش شعلان
عبد الموجود شاويش أه يا نارى .. فى الساعة كذا وأنا
جاعد فى الجسم حضر جدامى جدع طويل عريض زى
الشحط متهم فى جناية خطف فرخة .. وبعدين سألناه عن
أسمه وعن رسمه وعملنا المحضر اللازم » .

* * *

ومن خلال الأسئلة والأجوبة تبدو براعة شفيق المصرى
فى كشف عورات النظام الاجتماعى الذى كان يرزح تحت
عبئه الشعب .. وكذلك تبرز أصالة شفيق كفنان . وعبقريته
فى الغوص الى أعماق المأساة التى كانت تعيش فيها
مصر .

ومن خلال « محكمتنا العرفية » يحمل شفيق المصرى
حملة لا هوادة فيها على كل ما هو بشع وحقير فى حياة
الناس .. انه يهاجم الشركات فى عنف .. ويهاجم النظام
الراسمالى كله بلا رحمة .. وبطريقة فنية لا تغفل الحقائق

العلمية - التى تحول المجتمع الرأسمالى إلى معتقل كبير للشعب ..

ويهاجم شفيق المصرى الحرب .. ويهاجم الاستغلال والاستبداد والبطالة والخوف والجهل .

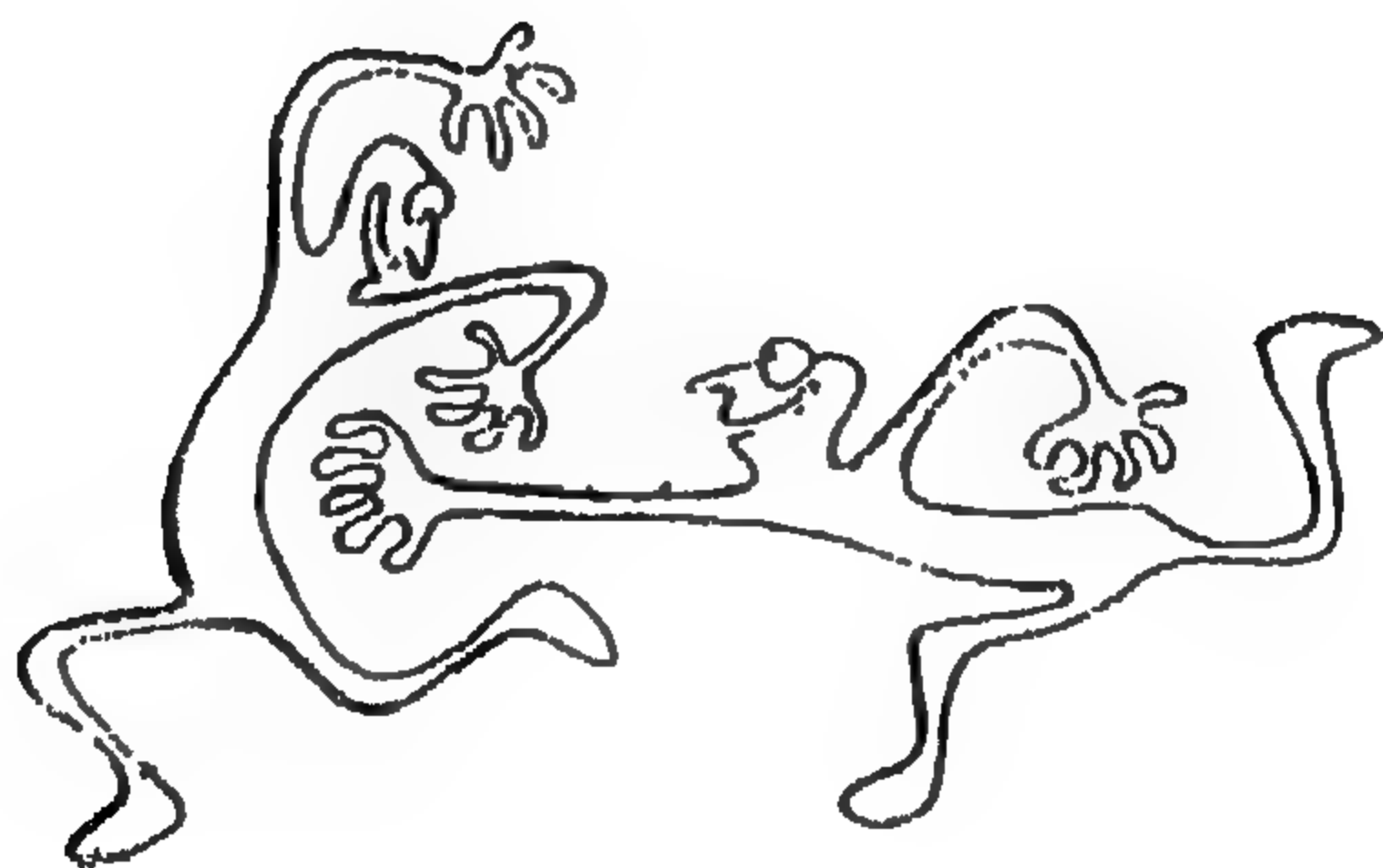
ولم يكتف شفيق المصرى بنقل المجتمع وهدمه عن طريق القلم .. بل أنشأ فيه لسانه ، وكأنما وجد ميدانه الحقيقى هنا ، فاكتفى به فى آخر أيام حياته - وأطلق مئات النكات تنهش فى كيان المجتمع وتنز فيه كالسوس ، وأصبح يرتاد المقاهى منذ أن تعطل وشاخ وفقد بصره ، وبدأ الرجل العجوز وكأنه فقد كل أسلحته فى الحياة إلا سلاح النكته يشهرها على أعدائه ، فراح يهاجم أدعياء الأدب والفن ، ثم راح يهاجم الأدباء أنفسهم ، ثم انبرى يهاجم الأحبة والأصدقاء ، واحتمل الناس دعاباته أول الأمر ثم ضاقوا بها وضاقوا به ، ويبدو أنه ضاق هو الآخر بالناس وبالحياة ، فاعتزل العالم ، وانزوى وحده يجتر مصيره فى صمت ، ولم يلبث أن ضاق بنفسه ، فراح يهاجم نفسه بعنف .

الابتسامة الأخيرة

ولعله وهو فى عزلة التى فرضها على نفسه تذكر تلك الأيام البعيدة من حياته .. عندما كان سعد حيا ، والثورة تجرى فى البلاد وتفور ، والشعب يتدفق كالسيل ، وربما رن فى أذنيه هتاف الجماهير يملأ الجو وصيحات الجموع تتصاعد إلى السماء ، وربما تذكر الجانب الذى اختاره بحكم الظروف ، ووقف فيه ضد الشعب وضد سعد ، وربما ضاق شفيق المصرى بنفسه من أجل هذا السبب ، وربما كفرت المحنة عن ذنب الرجل ، وربما مات مستريحا .

نعم ، ربما حدث ذلك ، وربما كان هذا الذى ذكرناه مجرد
وهم جال بخاطرنا ولم يخطر على ذهن شفيق المصرى أبدا .
ولكن الشيء المؤكد والشيء الثابت .. هو أن شفيق
المصرى مات مبتسما . فقد التقى به أحد أصدقائه قبل
وفاته بيوم واحد ، وكان قد فقد بصره تماما وأصبح أعمى ،
وتطوع شاب من أقربائه لمرافقته ، ولما سأله الصديق عن
الشاب الذى يرافقه .. أجاب شفيق :
— دا واحد صاحبنا .

وفى اليوم التالى .. سحبه عزرائيل إلى الآخر ..
انا شخصيا أرجو أن يكون قد سحبه إلى الجنة .



● محمد البابلي



النكتة للنكتة !

محمد البابلي

■ ■ وكان « مسيو كل شيء » المصري اسمه
« محمد البابلي » ابن عبده بك البابلي شيخ
تجار الجواهر في ذلك العصر . وكانما أفادته
مهنة أبيه في فنه ، فكانت نكاته وغمزاته
وقفشاته أشبه بسبائك رشيقة أنيقة لامعة .

أنا حمر فى شنبسى

المركب الكبير يعبر البحر إلى بور سعيد ، على ظهر
المركب سفراء فى طريقهم إلى الشرق الأقصى ، وعلماء
اثار يبحثون عن حضارات عريقة بين أطلال الشرق ،
وأثرياء يطوفون حول الأرض ، ورجال أعمال ، ورجال
مخابرات . ورجال فقط . ونساء انيقات ، ورشيقات ،
ومعطرات ، ولكن رجلا واحدا فقط بين هؤلاء جميعا ،
كان يثير الغيظ ويثير الإعجاب معا ، وكان هذا الرجل
قومسيونجى صغير ، وكان اسمه « كل شىء » أو هكذا
اطلق عليه الكاتب العالمى سمرست موم .

« بتاع كله ! »

وكان مسيو « كل شىء » يعرف كل شىء ، ويحترف كل
شىء ، فهو خبير فى لؤلؤ البحر الأحمر ، وهو عالم فى
الرياضيات . واستاذ فى علم طبقات الأرض ، ولاعب كرة
قدم ، وممثل سينما . وخطيب ، وقومسيونجى شاطر ، وهو
سائح ممتاز ، يعرف كل شوارع المدن الشهيرة ، ويعرف
مطاعمها ، وملاهيها ومفاتها ، وهو مغامر ، له فى عالم
النساء تاريخ !

وهو أيضا أديب ونديم وظريف يعرف كل النكات التى
تضحك لها جميع أمم الأرض .

وهذا المسيو كل شىء الذى رسمه « موم » ببراعة ، كان
له فى مصر نظير ، رجل من المحلة الكبرى ، كان ضابطا فى

البوليس ، وكابتن فى كرة القدم ، وعازفا على العود ، وطباخا ماهرا ، وثريا يضارب فى اليورصة ، ومقامرا أنفق معظم ليالیه وأكثر ثروته على المائدة الخضراء ، ومزارعا يملك ضیعة وقصرا فى الريف ، وكان ظريفا لاذع النکته ، أضحك الناس وأدهشهم وسخر منهم ، ثم تبخرت ثروته فسخر من الزمان ومن نفسه .

وكان « مسيوكل شىء » المصرى .. اسمه محمد البابلى ابن عبده بك البابلى شيخ تجار الجواهر فى ذلك العصر . وكأنما أفادته مهنة أبيه فى فنه ، فكانت نکاته وغمزاته وقفشاته أشبه بالسبائك ، رشیقة أنيقة لامعة . ولم تكن سخریته نتيجة سخط ، فهو ثرى أمثل ، وهو یحیا حياة الأمراء ، وهو ینفق الألوف ، ویبیعث المئات على موائد القمار ، وعلى الأصدقاء ، وكانت له شلة تجتمع كل مساء فى ركن خاص فى حلوان ، وكان البابلى یعد طعام الشلة بنفسه ، فقد كان كما ذكرت من قبل .. یجید طهى الطعام . وكان من بین أفراد الشلة .. عبد العزیز البشرى وحافظ عوض ووحيد الأیوبى ، ومحمد المویلحى صاحب کتاب عیسی بن هشام ، وكانوا جميعا یتمتعون بمكانة فى المجتمع .

النکته .. للنکته !

ولقد كان من الطبیعى أن تكون سخریة البابلى - من أجل هذه الظروف وبسببها - سخریة هادئة ، فیها فن أكثر مما فیها من مرارة ، ولو كان النقد تناول النکته على أنها عمل أدبى یؤدى دورا فى الحياة لقلنا إن البابلى كان من أنصار النکته للنکته ، بعکس شفیق المصرى مثلا ، الذى كان یعبر بنکاته عن وجهة نظره فى الحياة . ولهذا السبب أيضا خلت

كل نكات محمد البابلي (كتاب محمد البابلي لمحمد الصباحي) من كل ما يمس النظام الاجتماعي القائم حينذاك ، أو النظام السياسي ، فلم تكن النكتة عنده سلاحا ، كانت ترفا ، يرفه بها عن نفسه ، ويرفه بها عن الآخرين ، وكانت آخر الأمر صورة تعكس حياته المطمئنة الوداعة !

وهناك نكتة شهيرة لمحمد البابلي تصور اتجاهه هذا بوضوح ، وهي نكتة قيلت في مناسبة هي أقرب إلى المأساة منها إلى الملهاة ، ومع ذلك لم تدرك موهبته الناعمة عمق الموقف ولا مغزاه ، فمست نكته السطح ولم تنفذ إلى الأعماق .

كان له تابع يدعى سنقر ، وكانت علاقته بالبابلي مشبوهة ، فقد كان يدبر له أمر الليالي الحمراء ، ويبحث له في كل يوم عن صيد ثمين ، وباختصار ، كان يقوم للبابلي بنفس الدور الذي كان يقوم به بوللى للملك السابق فاروق . وجاءه جماعة من الصحاب في المساء وجلسوا يلعبون ويشربون ثم قال أحدهم مندهشا :

— تعرف يا محمد بك ، احنا اكتشفنا امبارح سر خطير . ويستفسر محمد البابلي من صاحبه عن السر الخطير ، فيجيبه ضاحكا والدهشة لم تفارقه بعد :

— امبارح بس عرفنا ان سنقر يحفظ القرآن ، كان معانا في المأتم وبعدين الفقى غلط فكشفه وصحح الآية .. حكاية كما قلت تصور مأساة ، رجل يحفظ القرآن تدفعه الظروف وتجبره على احتراف مهنة وضيعة ، كيف حدث هذا ، ما هي الظروف التي أدت بالمقدمات إلى غير النتائج التي كانت متوقعة ؟ أى مأساة عنيفة هي التي أدت برجل

يحفظ القرآن إلى أن يعمل قوادا لمحمد البابلي .
أسئلة لم تخطر ببال البابلي على الإطلاق ، ولكن المفارقة
تهزه فيقول نكتة ، نكتة رشيقة وأنيقة ولامعة .. ليس إلا ،
نكتة رجل ليس من طبقة سنقر ، بل لعله يزدريها ويحتقرها ..
استمع إلى محمد البابلي يعلق على الموقف بنكتة :
— لازم الفقى كان بيقرأ فى سورة النساء .
وعلى هذا الطراز تأتى نكت البابلي كلها . تكت خفيفة
سريعة تمليها المناسبة ، عمادها مقدرة فائقة عند البابلي
على التلاعب بالألفاظ ، ولكنها لا تهتم بالمضمون ولا تعنى
به ..



كان يلعب الطاولة مرة مع صديق ، فيلعب لعبة لم تعجب
خصمه ، فيسخر منه قائلا :
— بقى دى لعبة يا سى بابلى ، أمال إيه الفرق بينك وبين
الحمار ؟

ويرد البابلي على الفور :
— مافيش فرق بينى وبين الحمار غير الترابيزة ..



ويجلس فى بار بالعتبة ، وعلى مقربة منه يجلس رجل رث
الثياب زرى : "بئة" ، يعب الخمر بشراهة ، فيصيح فيه
البابلي :

— يا راجل ارحم نفسك ..
ويقول الرجل وهو نشوان :
— أرحم نفسى إيه يا بيه ، ما تشوف لونها .. ياقوتى .
ويرد البابلي على الفور :

— أيوه يا خويا ، النهاردة ياقوتى ، وبكره يا .. قوتى

(من القوت) .

* * *

مهارة لفظية ليس أكثر ولا أقل ، وبراعة فى استخدام
التورية بلا تكلف ولا عناء ..

ويعهد إليه والده وهو شاب بقطعة أرض ليستغلها بنفسه ،
ولكنه يسىء استغلالها ، فيطلب إليه الوالد أن يترك الأرض ،
وفى مناقشة عاصفة يثور الوالد على محمد البابلى :

— انت مش نافع ، انت مش بتاع شغل ، انت بتاع
سهرات بس وبتاع لف ودوران . الأرض دى بتاعتى ولازم
تسيبها أو أطردك منها ..

ويسكت محمد البابلى ويعبث بشاربه فى حركة عصبية ..
ويثور الوالد ويصرخ فى وجهه مؤنبا :

— مش عيب واقف تلعب فى شريك قدامى ..

ويجيب محمد البابلى فى ضيق :

— وهو بتاعك راخر .

ويضحك الوالد حتى يقع على الأرض ، ويتركه يعبث فى
الشارب ، ويعبث فى الأرض .

* * *

ويضايقه رجل أحيل على المعاش ، يضايقه بزيارته ،
ومرافقته والبابلى يضيق بصداقة الرجل المفروضة عليه
فرضا .. ولكن حيائه يمنعه من مصارحة الرجل ، ثم ينتهز
فرصة حين يلتقى بصاحب مطبعة ويكلفه أن يطبع له بطاقة
باسمه ، ويسأله صاحب المطبعة :

— نكتب الاسم ، محمد عبده البابلى ، أو محمد البابلى

بس ؟

ويجيبه البابلى وصاحبه الثقيل يقف بجواره :

— لا اكتب محمد المعاش .

ويسأله الرجل فى دهشة :

— محمد المعاش ؟

ويجيب البابلى فى هدوء :

— أيوه ، ما هو الراجل دا (ويشير إلى صاحبه) حالوه

على .. ويفهم الرجل الثقيل أخيرا ، فيذهب إلى غير رجعة ! .

* * *

وكان لمحمد البابلى ولد يعمل موظفا فى بلدية المحلة ،
وكان البابلى يمنحه خمسة عشر جنيها كل شهر فوق مرتبه
ولكنه لم يكن يكتفى بما يأخذه ، بل كان دائم الإلحاح على
والده فى طلب النقود .

وضاق البابلى بطلبات ابنه ، فصرخ فى وجهه ذات يوم
غاضبا :

— انت بتودى الفلوس فين ؟

— فلوس إيه ، هيه دى فلوس ..

— كده ، طيب اسمع اما أقولك ، تبادلتنى ، يعنى انت
تاخذ مركزى وأنا أخذ مركزك ، وتخلصنى م الهم اللى
أنا فيه .

وأجاب الابن فى سرور :

— مستعد .

— مستعد تخلصنى م الهم اللى أنا فيه ؟

— يعنى أتنازلك عن الأرض ، وعن الفلوس ؟

— مستعد .

— بس على شرط ، أتنازلك كمان عن أمك .

* * *

ويفاجئه صديق وهو يدخن فى رمضان ، فيصافحه

ويجلس إلى جواره ، ثم يحاول أن يجاذبه أطراف الحديث
ولكن البابلى يلتزم الصمت ، ثم تتحرك شفتاه تترنمان
بكلمات مبهمه ، فيسأله الصديق :

— الله . انت بتعمل إيه ؟

— ويجيبه البابلى :

— بقرا قرآن !

— قرآن وانت فاطر ؟

— مانا بقرا آية « فاطر السموات والأرض » .

* * *

ويعيش محمد البابلى حياة بهيجة ، سهرات . وحفلات ،
ومآدب ، وأصدقاء ، ومضاربات فى البورصة ، وتريقة على
عباد الله ، ثم يعتزل الوظيفة ويتفرغ لممارسة الحياة .
ويلتقى به صديق ، فيسأله فى إشفاق :

— انت سبت البوليس ؟ ..

ويضحك البابلى وهو يقول :

— لا .. البوليس أفرج عنى ..

وتنتهى به حياة اللهو إلى الإفلاس . فيعيش بقية حياته
فى قلق ، ولكن النكته لم تفارقه أبدا ..

يسأله صديق :

— انت عدلست (نسبة إلى عدلى باشا) ولا وفدست

(نسبة إلى الوفد) .

فيجيب البابلى :

— أنا فلست .

وكان هذا فى حقيقة الأمر هو موقف محمد البابلى من
الحياة ، عدم الارتباط بشيء إلا بحياته الخاصة ، ويمزاجه
الخاص ، فلما طحنته الحياة ، ذاب فى مؤسساته الخاصة .

يسألني عن أحواله فيخبره بما آل إليه حاله ،
فيسأله نى إشفاق :

— طيب والطين (الأرض) .

فيجيبه فى حزن حقيقى :

— شلته .

* * *

ويستمع إلى سى عبده الحامولى يغنى « أهل السماح
والملاح فىن أراضيهن » فيتندد البابلى فى حسرة ويقول :
— فى البنك العقارى ..

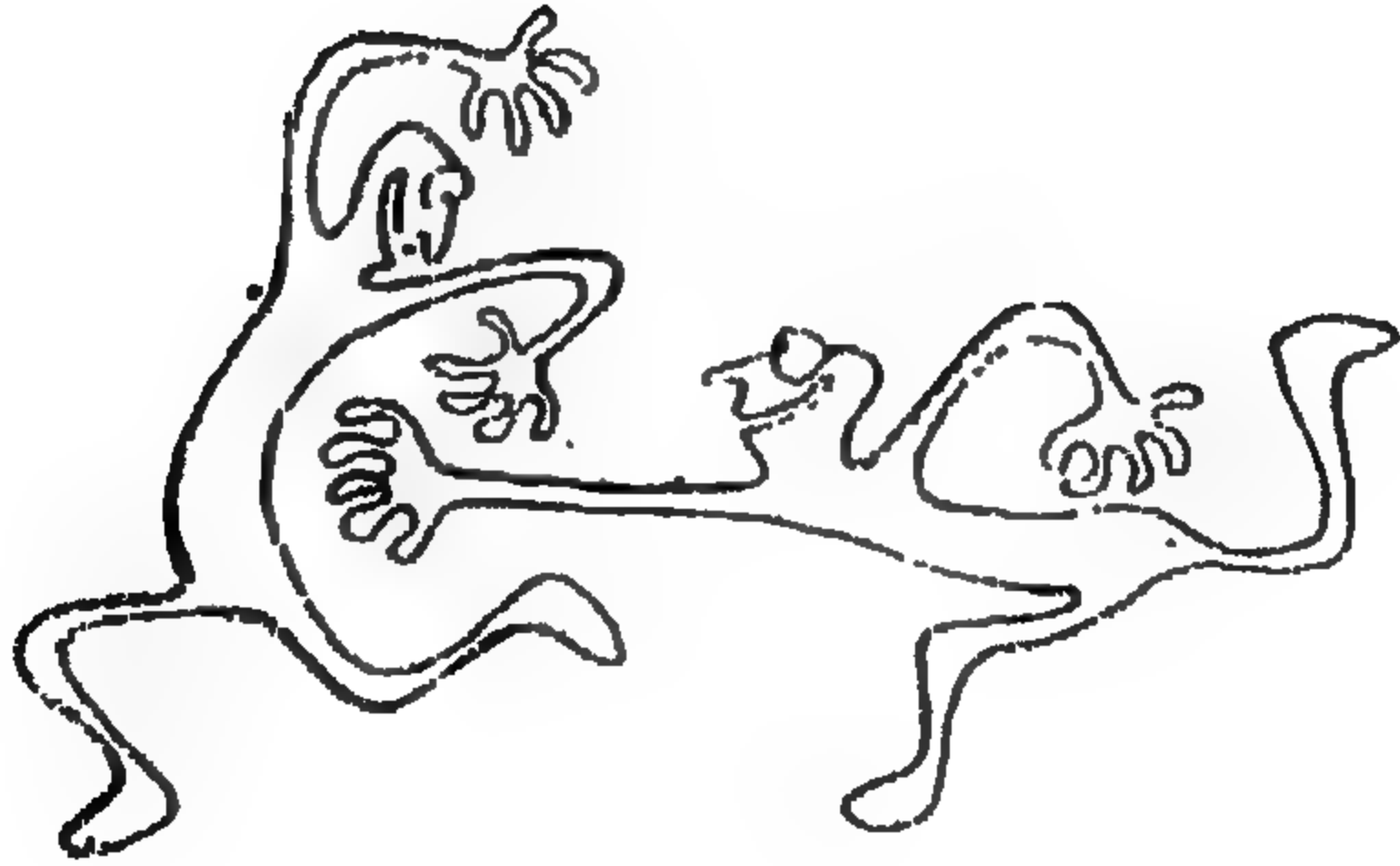
وكان البابلى قد رهن أراضيه فى البنك العقارى .

* * *

ويقضى البابلى آخر أيام حياته فقيرا لا يملك شيئا ،
البنك استولى على الأرض ، وضاع فى اللهو ما كان معه من
ذقود ، والخمر تبتلع النذر اليسير الذى كان قد تبقى ،
ويهجره أغلب أصدقائه ، ويتحاشاه حتى أقرب المقربين
إليه ، ويفقد كل شيء .. حتى تابعه الذليل سنقرمات ! ويمر
عليه متسول يسأله شيئا لله ، فيجيبه فى ثورة :
— الله ما خد كل حاجة ، حتى سنقر .

ثم يموت محمد البابلى ، وتموت معه كل نكاته ، لأن نكاته
لم تكن من النوع الذى يعيش . إذ لم يكن البابلى يستهدف
من ورائها شيئا إلا المتعة والإضحاك . ورغم اضطراب
الأحوال السياسية والاجتماعية فى زمانه ، وزعم وفورة
الضحكات المبكيات حينئذ ، فإن محمد البابلى لم يستخدم
موهبتة أبدا فى « جلد » النظام القائم وأربابه ، ربما لأنه كان
أحد المستفيدين من قيام النظام بكل متناقضاته وأخطائه ،
حتى بعد أن حطمته المأساة وأفلس عقل صديقا للنظام ،

ولم يستخدم موهبته أبداً في عداته .
لم يرتبط محمد البابلي بشيء ، غير شلته . لذلك لم يعن
بالشعب لأنه لم يحس بوجوده . وكان الشعب عنده ، وفي
أعظم صورته ، خدم الملامى ، والفلاحين شى الضيعة ،
وحراس قصره ، وسنقر الذى صحح الآية للمقرئ ، لأنه
كان يقرأ من سورة النساء ! .
على أية حال ، لقد ذهب البابلي بعد أن أضحك أبناء طبقة
كان البابلي ينتمى إليها .. طبقة أبناء الذوات . ولهذا السبب
لم يحفظ الشعب نكاته ، ولم يرددها من بعده .. فماتت .
أخذها الله أيضاً كما أخذ أرضه وأمواله وأصدقائه وكما أخذ
تابعه الذليل . سنقر ! .



● د . محبوب ثابت



لعنة الظروف !

■ ■ وعاش محبوب ثابت يصارع هؤلاء
= ولكن احدا لم يصارعه ، بل اتفقوا
جميعا على حبه ، واتفقوا على شيء
آخر كان يغيظ الرجل ويحنقه ، ان
يضعوه في المكان اللائق .. ان يظل
رجلا هازلا يضحكون منه ، ويضحكون
عليه ..

محبوب ثابت

كان ثريا ، وكان نائبا ، وكان سياسيا ، وكان كاتباً ،
وكان زعيماً للعمال ، وكان زميلاً وأستاذاً للعظماء
والزعماء والوزراء ، وكان صديقاً لأنبغ وأشهر وأعظم
أبناء عصره ، وكان ظريفاً ، ابن نكتة ، تجلس إليه
فلا تمله ، وتسمعه فلا ترهد حديثه ، عاش حياة طويلة
عريضة ، وخرج منها بكل شيء إلا الوزارة .. والزواج .

كان يرغب فى الزواج ، وحاول مرتين وعدل ، عدل فى
المرء الأولى عن إشفاق ، وفى الثانية عن فشل .
كان يدرس فى سويسرا ، وكانت له زميلة مليحة روسية
شابة من النبلاء ، بيضاء كالليب ، فى عينيها زرقة
المحيط ، وفى شعرها صفار الذهب .. وأحبها وأحبته ..
وطلبت إليه أن يتزوجها فأمهلها أياما يدبر فيها أمره . وذهب
الرجل الحائر يستشير صديقه مراد سيد أحمد - وهو الذى
سيصبح فيما بعد وزيراً للمعارف فى مصر - فینهاه عن هذا
الزواج ، خشية أن تفسره العامة فى مصر تفسيراً سيئاً ،
إذ كيف للوطنى المجاهد أن يتزوج أجنبية .. !
وفعلا هجر الروسية النبيلة وفر إلى باريس .

وكما كان صديقه السبب فى عدم زواجه فى المرة
الأولى ، كذلك كان السبب فى المرة الثانية صديق آخر ،
فبعد ربع قرن طويلاً فكر فى الزواج ، ثم فوجئ وهو يقطع

خطوته الأولى نحو تحقيقه بصدق يتزوج من التي كان قد
اختارها زوجة له ، فأصابته المفاجأة بعقدة من الزواج ،
فأقسم ألا يتزوج حتى يموت ، وفعلا كان .. !

حلم لم يتحقق

أما الوزارة فقد كان يتلطف عليها ويترقبها ، وكان يرى انه
أحق الناس بها ، وكان يؤمل أن يستوزره الوفد ، ولكن الوفد
لم يفعل ، فخاصمه وهاجمه طول حياته ، وحقد على زعمائه
وأعضائه .. وانتظر أن يحقق محمد محمود أمنيته الكبرى ،
وفعلا ، استدعاه محمد محمود عام ١٩٢٨ عندما أصبح
رئيسا لوزارة القبضة الحديدية ، وتوقع الرجل أن يسند إليه
محمد محمود الوزارة ، فحمل معه كل مشاريعه وكل برامجه ،
وذهب إليه ، ولكنه فوجئ بمحمد محمود يعرض عليه
مرافقته في رحلته إلى الأقاليم .. وكنتم الرجل غيظه وسافر
معه ، مؤملا أن يحقق بغيته بعد الرحلة ، ولكن شيئا من ذلك
لم يحدث ، فهاجم محمد محمود بشدة وبعنف ، وخاصمه
حتى مات .. !

بسمارك افريقيا

واعتزل الأحزاب وهاجمها ، ورأى فيها شرا وبلاء
وخطرا ، وهاجم كل الزعماء وحمل عليهم ، ولكن موقفه مع
صدقى كان يختلف عن ذلك لأن صدقى الذكى أراد أن يمسك
هذا اللسان عن مهاجمته ، فانتهاز فرصة توليه الحكم
عام ١٩٣٠ ، فأنعم عليه بمنصب كبير أطباء الجامعة ..
وفرح الرجل بالمنصب فرحا كبيرا ، وتحركت مواهبه تمدح
صدقى وتشيد به ، حتى لقبه بـ « كليمونصو » مصر ،
و « بسمارك » افريقيا ، وحتى مدح دستوره - دستور
عام ١٩٣٠ - ووصفه بأنه خير ألف مرة من
دستور ١٩٢٣ .. !

ولم يكن مما يشرف إنسانا فى ذلك العصر أن يمدح
صدقى ويشيد بمزاياه .. فما بالك إذا كان هذا الإنسان
وطنيا بحق ، أبلى بلاء حسنا فى الثورة ، وادعى زعامة
العمال الذين سلط عليهم صدقى هراوته ، ثم رصاصة ، ثم
دفنهم وهم أحياء ؟ !

صورة للعصر

ولكن .. هكذا كان الدكتور محجوب ثابت ، أحد أبناء
الجيل المضطرب الحائر الذى سبق ثورة ١٩١٩ وأعقبها ، بل
كان محجوباً ثابت هو ممثل هذا الجيل بجدارة ، وصورة حية
لروح العصر ! .

كان محجوب ثابت إذن مضطربا مشوشا كالعصر الذى
عاش فيه ، احترف الطب وجمع ثروة من ورائه ، ولكنه يهجر
عيادته ليجمع تبرعات للوفد ، ثم ينتظر الجزاء فلا يجد
إلا الإهمال والإعراض ، فيثور على الوفد ، ويمدح حزب
الأحرار ، ولكن حزب الأحرار يعامله كرجل هازل ، يحبه نعم ،
ولكن بقدر لا يرتفع بالرجل إلى منصب الوزارة ، فيخاصم
الحزب ويحمل عليه ، ثم ينصب نفسه زعيما للعمال ، فإذا
جاء صدقى إلى الحكم عام ١٩٣٠ انضم إليه يمدحه
ويدعوه له ، بينما صدقى وجنوده يسفكون دم العمال على
قارعة الطريق ..

وعاش محجوب ثابت حياته يصارع هؤلاء وهؤلاء .. ولكن
أحدا لم يصارعه ، بل اتفقوا جميعا على حبه ، واتفقوا على
شئ آخر كان يغيظ الرجل ويحنقه ، أن يضعوه فى المكان
اللائق ، وكان مكانه اللائق .. أن يظل رجلا هازلا يضحكون
منه ، ويضحكون عليه ..

حدث مرة أن رشح الدكتور محجوب ثابت نفسه ضد

مرشح ! فـد فى إحدى دوائر الاسكندرية ، وحاربه الوفد
حربا لا هوادة فيها ، واستطاع أن ينتصر فى النهاية ،
ويدخل مجلس النواب نائبا .. رغم أنف سعد ..
وتصور أنت نائبا يدخل مجلس النواب رغم أنف سعد ،
وهو الذى لو رشح « حبرا لانتخبناه » ، وتصور أى خطر
وأى قدر يكون لهذا الذى تحدى « الأمة وإرادة الأمة » ..
ولكن محجوب ثابت كان شيئا آخر .. حتى فى نظر سعد ..
ولذلك نرى سعد لا يغضب منه ولا يحقد عليه ، بل يتواطأ مع
مجلس النواب ليسخر منه ، فيوعز إلى أعضاء لجنة الطعن
بأن يتباطأوا فى تقديم تقرير الطعن المقدم ضد محجوب
ثابت لتظل نيابة الدكتور معلقة .

ويتردد محجوب ثابت على مكتب سعد زغلول ألف مرة ،
يطالبه بالفصل فى الطعن المقدم ضده ، ويعد سعد ، ثم
يخلف ، ثم قرر أخيرا أن ينظر المجلس فى الطعن .
وكلف سعد النقراشى بتدبير مسرحية لمداعية الدكتور
محجوب ثابت ، فيتكلم حمد الباسل مدافعا عن صحة نيابة
الدكتور ، ويخطب على أيوب معارضا فى انتخابه .

الشربات يا محجوب !

وينعقد المجلس ، ويهب على أيوب معارضا صحة نيابة
الدكتور محجوب ثابت ، ويعلن أن لجنة الطعن وقعت فى
خطأ حسابى - غير مقصود - مما أدى بها إلى رفض
الطعن ، ويطلب فى حزم إعادة النظر فى الطعن ، ورفض
نيابة الدكتور محجوب ثابت .

ويثور الدكتور محجوب ، وسعد على المنصة يبتسم
ويضحك ، ويطلب من على أيوب أن يعيد الكلام بتؤدة حتى

يتمكن النواب من سماعه ودراسته .

ويعيد على أيوب الكلام ، والدكتور يستمع إليه وهو جالس مكانه كالمأخوذ ، والتقراشى يجلس خلفه متظاهرا بالأسف .

ويطلب سعد من محجوب ثابت أن يرد على كلام على أيوب ، فيطلب التأجيل ، ولكن سعد يرفض التأجيل ، ويثور الدكتور على سعد ، ثم يتوسل ، ولكن سعد يتجاهل ثورته ويرفض توسله ، ويطلب إلى الدكتور ماهر أن يتكلم .

وينهض أحمد ماهر ويبدأ الكلام ، فإذا به يحمل على زميله على أيوب ويفند كلامه ، ثم أعلن رفض الطعن وصحة عضوية محجوب ثابت ، ويهجم النواب على محجوب ويحملوه على الأعناق إلى بوفيه المجلس ، ويهتف أحدهم ويردد الآخرون الهتاف « نريد الشربات يا محجوب » رمحجوب يرفع يديه - كما يفعل الزعماء - ويحييهم ، وسعد يشهد المنظر عن كذب وهو يضحك من الأعماق ..

وهذه الحادثة تكفى لتفسير موقف الأحزاب والزعماء وكبار الشخصيات من محجوب ثابت .. انه رجل ظريف .. لا أكثر ولا أقل .. !

ميراث قومي

ان الكاتب الساخر عبد العزيز البشرى يكتب عنه فيقول : « لا شك أن الدكتور ثابت ، يعد بحق من ميراثنا القومي ، ولو جرى عليه القدر لكان لابد للأمة من محجوب ثابت بأية طريقة ، انه فى ميراثنا القومى لا يقل عن آثار سقارة وجامع السلطان حسن ومقابر الخلفاء ، ولقد أصبح على الزمان جزءا من تقاليدنا الأهلية كحلقة المحمل ووفاء النيل وشم النسيم » .

ثم يتعرض لنشاطه السياسى فيقول : « والدكتور فى المصريين كانجلترا فى الأمم ، كل منهما يرى عليه للآخرين تبعات لا تنقضى ، فإذا كان الكلام فى النيل تولى الدكتور الكلام وملكه على جمهرة المهندسين ، وإذا كانت الثورة تصدر الدكتور لجنة الوفد المركزية ، وكلما انتشرت فى البلد مظاهرة كان قائدها ، وكلما ساروا بجنازة كان على رأس المشيعين ، فإذا كان اجتماع فى الأزهر كان الدكتور فارسه الذى لا يشق له غبار ، وإذا كانت مشاكل للعمال أبى الدكتور ألا أن ينفردها من دون الناس جميعا ، كان نقيباً لعمال العنابر ولفافى السجائر وسواقى الأوتوموبيلات وشيالى المحطات وخدم الفنادق والقهوات وجميع الطوائف من كل بدال ويقال وجزار ..

« وفى الحق فإن الدكتور يرى نفسه مسئولا عن كل ما فى البلد من هابط وصاعد ، وقائم وقاعد ، وغاد ورائح ، وسائح وبارح ، ودارج على متن الغبراء ، وطائر فى جو السماء ، فإذا كانت هناك منطقة خارجة عن اختصاص الدكتور فهى عيادته فقط ! »

« وانى أقترح على الحكومة أن تصدر قرارا ينزع ملكيته وإضافته إلى المنافع العامة ، ولعلها بعد العمر الطويل تجعله من نصيب دار الآثار !
انتهى كلام البشرى .

وهو فى اعتقاده صورة عبقرية صورها قلم البشرى لمحجوب ثابت .. وأغلب ظنى أن محجوب ثابت ثار على هذا الكلام ، فقد كان يكره المداعبة حين تجرح ، وكانت أكثر الدعابات الجارحة تأتية من شوقى ..

كان شوقى يعرف نقطة ضعفه ، فكان يحمل إليه دائما

أنباء لا تسره » كم أنت ضائع الحق يا محجوب ، ان صاحبك النقراشى اعترض على تعيينك وزيرا للصحة ، ولم يهدأ له بال إلا بعد أن حذف اسمك من قائمة الوزارة .. ويصدق الدكتور محجوب الدعابة ، وينطلق يسب النقراشى ، ثم يدرك بعد أيام ان شوقى خدعه ، وأنه كان ضحية مؤامرة مدبرة .. ولكن إدراكه ان شوقى يخدعه كان لا يمنعه من أن يصدق نفس الرواية إذا عاد شوقى وقصها عليه ، وقد ظل شوقى أكثر من خمسة أعوام طويلة يحمل إلى الدكتور محجوب ثابت نبأ اختياره وزيرا للصحة ، ثم اعترض بعض الوزراء على هذا التعيين .. وظل محجوب خلال هذه السنوات الطويلة يصدق شوقى فى كل مرة ، ثم يكتشف عقب كل مرة انها كانت خدعة ، وأنه كان ضحية مؤامرة مدبرة ..

هجاء شوقى

وكان محجوب يغضب أيا ما ثم تصفو نفسه ، فيعود إلى شوقى ، ولكن شوقى هجاه بقصيدة جعلت محجوب يقرر الدخول مع شوقى فى معركة طاحنة ، وأعلن انه سيعرى شوقى أمام الناس ، وأنه سيكشف عن سرقاته الشعرية ، وسيميط اللثام عن جهله - جهل شوقى - وسيجعل منه عبرة لمن يرى ، وفعلا ، يكتب الدكتور محجوب مقالا ناريا فى هجاء شوقى ويبحث به إلى الأهرام ، ولكنه يعود فيتصل بالأهرام فى المساء طالبا إلى المسئولين فيها عدم نشر المقال ، فقد خشى أن يؤدى نشره إلى قطيعة أبدية بينه وبين شوقى ، وكانت القصيدة التى أهاجت محجوب وأغضبته :

براغيث محجوب لم أنسها

ولم أنس ما شربت من دمي

تشق خراطيمها جوربي
وتنفذ في اللحم والأعظم
وتنظرها حول «بيت» الرئيس
وفي شاريه وحول القم
بواكير تطلع قبل الشتاء
فتحمل الوية الموسم
قد انتشرت جوقة جوقة
كما رشت الأرض بالسهم
ترحب بالضيف عند الطريق
فباب العيادة فالسلم

رايه في معاصريه

ولقد كتب محجوب ثابت رايه في أكثر معاصريه : قال عن
مصطفى النحاس : انه كان يمثل الوطنية طالبا ، والنزاهة
والشجاعة قاضيا ، والإخلاص محاميا ، أما النحاس الزعيم
فلأترك الحكم عليه للتاريخ ..
ووصف مكرم عبيد بأنه خطيب العواطف ، وإن يلقى
خطبته أو يدبج مقاله ، أو يدلي بحديثه ، فكأنه يوقعه على
قيثارة ، صديق ودود وعدو لدود ، فهو ملاك في صداقته ،
شيطان في عداوته ، جبار في خصومته ..
وقال في إسماعيل صدقي : ان المنصفين من أبناء هذه
الامة يعترفون بوطنية إسماعيل صدقي وبعد نظرة ، وان
التاريخ سينصفه ، وسيقدره الأبناء والأحفاد ، بل بدأ الناس
يفهمونه ، ألم يحمله طلاب الجامعة على الأعناق تكريما .. !
وكان للدكتور راى في فاروق ووالده فؤاد لا أظنه كان راى
محجوب ثابت الحقيقي ، وأغلب ظنى انه راى تجارى أراد

الدكتور أن يصل به إلى كرسي الوزارة ، وهو المنصب الذى عاش محجوب ثابت ومات وهو يحلم به ، وكان يرى انه أحق الناس فى مصر بوزارة الصحة ..

لقد ذهب إلى محمد محمود بعد تأليف الوزارة ، وانفجر فى وجهه ساخطا لاعنا محتجا .. لقد جعلتم من البندارى وزيرا للصحة وهو محام لا أطلع فى مكانته بين المحامين ، ولكن ليست لديه معلومات صحية ، ولا دراسات طبية ، كما انه لم يشتغل بالمسائل العامة ، ولم يجاهد كما جاهدت ، ولم يضطهد كما اضطهدت ، ولم ينكب فى سبيل الوطن كما نكبت ، ولم ينف كما نفيت ، ولم يفتش له مكتب كما فتشت ، ولم يتلف له كتاب ، وبالجمله لم يؤد كما أدت ، ثم قال منشدا قول غيره فى محمد محمود :

رجوت لك الوزارة طول عمري

فلما كان منها ما رجوت

تقدمنى أناس لم يكونوا

يرمون الكلام إذا دنوت

فأحببت الممات وكل عيش

بحب الموت فيه فهو موت

* * *

ويبدو أن الدكتور يش من تولى الوزارة فقنع بالحديث عنها وكيف انهم فاتحوه فى الأمر فرفض ، واشترط شروطا غاية فى الحزم وغاية فى القسوة ، وقد أنشد حافظ إبراهيم فيه قصيدة جاء فيها :

يبيت يحلم أحلاما مذهبة

تفنى تفاسيرها عن علم ابن سيرين

طورا وذيرا مشاعا فى وزارتہ
يصرف الأمر فى كل الدواوين
وتارة زوج بمطبول مدملجة
حسناء تملك آلاف الفداين
يعفى من المهر إكراما للحيته
وما أظلتہ من دنيا ومن دين

* * *

وبعد حياة طويلة عريضة حافلة ، قدر لمحجوب ثابت أن
يهدأ وأن يستريح ، ولقد ظل حاضرا البديهة متوقدا الذكاء
حتى فى لحظاته الأخيرة ، وظل يذكر مشروعاته واحدا بعد
الأخر ، ثم عض على شفتيه وقال فى أسف عميق : لو كنت
توايت الوزارة لنفذتها ! .

ثم أغمض عينيه .. ومات .. وكانت آخر كلماته
المشروعات والوزارة !!

والحق أقول : ان محجوب أحق من كثيرين بالوزارة ، وأنه
كان شجاعا جنت عليه شجاعته ، كما أودى به ظرفه .. ويبدو
أنهم كانوا يغفرون كل شيء إلا أن يكون ظريفا ، ولهذا
السبب وجدنا فى كرسى الوزارة .. اللصوص والخونة
والعملاء ، الذين أكلوا على الموائد وتسلقوا طريقهم على
الاكتاف كالقروء ..

أما محجوب ثابت فقد حرموه من الوزارة ، فقد كان
مجرما .. كان ظريفا .. !

* * *

أنتعش الظمير فناء

■ ■ ■ وفعلا انهمك مجدى فى الرقص !!
واستنجد الرجل بالبوليس ، فقد تأكد
ان الموظف الذى اقترحه كامل
الشناوى .. لابد انه كان نزيلا
لمستشفى المجاذيب .

مجدى فهمى

الحرب عام ١٩١٤ ..

وفى مصر جنود من كل الأجناس ، ومن شتى بقاع الأرض : انجليز ، وهنود ، واستراليون ، ومن شرق وغرب افريقيا ، والجنود الأجانب ياكلون خيرات البلاد ، والمصريون ياكلون من طين الأرض ، والفلاحون يهجرون الريف ، والأثرياء يفرغون رصاص المسدسات فى رؤوسهم ، والتجار يفلسون بالعشرات ، والخراب يعم وينتشر ويصبح فى نهاية الحرب « زعيم الأغلبية » فى البلاد ..

ويفلس مع من أفلس تاجر عجوز اسمه أحمد فهمى ، كانت له تجارة رابحة فى الريف . ويقيم أحمد فهمى فى المنصورة وقد هدت كيانه المأساة فلا يجد ما يصنعه إلا النكتة ، والتريقة على عباد الله

ومع الإفلاس يرزق أحمد فهمى بولد ، فيطلق عليه من باب التريقة أيضا .. اسم مجدى ، أى مجد الوالد ، وكان مجد أحمد فهمى .. الإفلاس .

ويتزعزع الطفل مجدى وسط هذه الظروف العجيبة ، والد يحترف الهزل بعد أن حطمته المأساة ، وأوضاع غريبة تسيطر على البلاد ، ملك يملك ولا يحكم ، ووزراء لا يملكون ولا يحكمون ، وجيش أجنبى يحكم ويملك كل شىء .. حتى الملك والوزراء .

ويجوب الطفل حوارى المنصورة مع أبيه ، يدخل غرز الحشيش ، والمقاهى الحقيرة ، ويصافح وجوها شاحبة ، وأفواها نخر فيها السوس ، ولكنها مفتوحة رغم كل شيء تقهقه ساخرة على كل شيء :

ثم يهجر مجدى المنصورة إلى القاهرة .. إلى المدرسة ، ولكنه بعد أن ينتهى من دراسته الثانوية يصاب بكارثة توقفه ، وتمنعه من التقدم خطوة واحدة إلى الأمام . فقد مات أبوه فجأة ، وأصيب بعاهة جعلته لا يرى أبعد من مواطىء قدميه .

ويخرج مجدى إلى الشارع .

ولم يكن فى الحياة التى شهدت مصر تلك الأيام متسع لرجل مثل مجدى لم يتم تعليمه ، مترهل الجسم كأنه فيل ، ضعيف البصر لا يكاد يرى ، حاد النكته كأن لسانه كرباج سودانى أصيل .. فيقنع من الحياة بالفرجة عليها ، والسخرية منها .. ومن كل الناس . ويظل مجدى عاطلا بلا عمل ، وتنشب الحرب العالمية عام ١٩٣٩ ومجدى بلا عمل ، ولا أمل فى عمل ، والحرب جعلت لكل شيء سعرا حتى التراب ، إلا مجدى ، فقد ظل كما كان .. لا سبعرله على الإطلاق . ولا شيء يشغله فى الحياة إلا التردد على مكاتب ومنازل الأصدقاء ، يضحكهم ، ويدخن من سجائرهم ، ويأكل على موائدهم ، ثم يتكرم أحدهم آخر الليل بتوصيله إلى بيته .

بتلعبنى حواجبك ؟ !

وكان من الممكن أن تمضى الحياة هكذا إلى آخر العمر . ولكن أحد أصدقائه - كامل الشناوى - يعثرله على عمل ، فى أحد المكاتب ليقوم بترجمة نشرات عن جهود الحلفاء فى

الحرب ، عمل يجيده مجدى ، وبمرتب لم يكن مجدى يحلم به ، تسعون جنيها ليس كل عام ، وليس كل دهر ، ولكن كل شهر ، ويخطف مجدى العنوان من يد كامل الشناوى ويهرول نحو المكتب ويدخل على « صاحب السعادة » المدير ، فيجده رجلا ضئيلا لا يكاد يبين من خلف المكتب ، دميما كأنه قرد ، ولكنه بالرغم من ذلك يبدو بشوشا رقيقا مجاملا إلى حد بعيد . ويجلس مجدى أمامه فى ألب شديد يستمع إليه وهو يشرح له تفاصيل العمل ، وكان الرجل يعانى من شلل قديم أورثه حركة عصبية غريبة تجعله دائما يرعش حاجبه الأيمن ويخرج لسانه ، ويهز كتفه الأيمن خصوصا إذا انهمك فى الحديث ، وعندما انتهى الرجل من شرح طبيعة العمل وذكر المرتب (٩٠ جنيها) راح يخرج لسانه لمجدى ويهز له كتفه ، ويرعش له حاجبه فى حركة متواصلة ، ودقق مجدى النظر إليه ، فتأكد أن الرجل يسخر منه ، وليس أدل على ذلك من هذه الحركة الغريبة ، ومن المرتب الذى ذكره ، إذ أن مجدى كان لا يحلم بأكثر من تسعة جنيها .

وعندما يصل مجدى إلى هذا الاستنتاج الخاطيء ، يقفز من فوق مقعده ، ليقف وسط الحجرة ويصرخ فى وجه الرجل :

— بقى انت بتلعبنى حواجبك ، طيب أنا هارقصلك .
وفعلا .. انهمك مجدى فى الرقص ، واستنجد الرجل بالبوليس فقد تأكد له أن الموظف الذى اقترحه كامل الشناوى .. لابد انه كان نزيلا لمستشفى المجاذيب .

الغريب فى الأمر أن المدير ظل معتقدا حتى آخر أيام حياته ، أن الموظف مجدى هو أخذ « مقالب » كامل

الشناوى . ما علينا ، فقد خسر مجدى الوظيفة ، وعاد إلى الشارع ..

وتمضى سنوات طويلة ومجدى عاطل ، ثم يتوسط له حفنى محمود عند حامد جودة ليلحقه بوظيفة فى مجلس النواب ، ويوافق حامد جودة ، ويصبح مجدى أخيرا موظفا على اعتماد ، وبمرتب خمسة وعشرين جنيها . ولا يكاد ينقضى أسبوع على تعيين مجدى حتى يهب الشعب فى كل مكان نائرا ضد حكومة الأقلية ، والمدن تموج بالمتظاهرين يهتفون بسقوط الخونة ، ويصيحون مطالبين بالجلاء والاستقلال ، وتستمر المظاهرات أسبوعا كاملا ، وتهاجم الجماهير الغاضبة دار مجلس الوزراء ، والوزارات ، وتتجه إحداها إلى مجلس النواب . ويقف حامد جودة يرقب المظاهرة الصاخبة . من نافذة مكتبه ، عشرات الألوف يزمجرون ويهتفون « يسقط الخونة ، يسقط حامد جودة » وشخص أكثر حماسا من المتظاهرين يقود المظاهرة ، ويركب فوقها ، ويهتف فى صوت كالرعد « يسقط حامد جودة » ويدقق حامد جودة النظر إلى الشاب الذى يركب فوق الأعناق ، فيجد انه نفس الشاب الذى توسط له حفنى محمود .. البائس مجدى . وتقوم الدنيا وتقعده ، ويفصل مجدى من مجلس النواب .

ركوب المظاهرة !

« ولكن حامد جودة يستدعيه ، ويصر على أن يعرف منه الأسباب التى دفعت به إلى ارتكاب هذه الجريمة » !!
ويجيبه مجدى فى سذاجة وفى سخرية :

« — ولا حاجة ، أنا خرجت من بيتنا عشان أوصل للمجلس

لقيت المظاهرات شغالة والمواصلات مقطوعة ، فقلت أحسن

طريقة أركب مظاهراته لحد المجلس .. ويضحك حامد جودة حتى يستلقى على قفاه ، ويخرج مجدى من مكتب رئيس المجلس .. إلى المهنة التى كان يجيدها .. إلى الشارع . ويسأم مجدى البطالة فيبحث بنفسه عن عمل ، وكان يهوى الصحافة فاتصل بصاحب إحدى المجلات الأسبوعية الذائعة وتوسل إليه أن يفسح له مكانا فى جريدته ، ووافق الرجل ، وذهب مجدى إليه . وخلال جلسة استمرت تسع ساعات كاملة وامتدت حتى الفجر ، ظل الرجل صاحب الجريدة يلقي على مجدى دروسا فى الصحافة ، وفى فن الكتابة ، ومجدى يستمع إليه ويبتسم ويهز رأسه موافقا إياه على كل حرف .



يقول مجدى : كان الرجل جاهلا .. أجهل من معلم إلزامى ، حقيرا أحقر من عبد ، فاستغل ضعفى وحاجتى إليه ليفرز معى عقده النفسية . وخرجت من مكتبه وقد اتفقنا على أن أكتب له مقالة فى الأدب ، مقابل عشرة جنيهات .. وغاب مجدى أياما ثم عاد ومعه المقال ، مقال فى الأدب كما اتفق مع الصحفى الكبير ، وقرأ الرجل المقال فأعجبه ، وأمر بنشره على الفور ، وظهر المقال فى الجريدة ، وكانت فضيحة !! يقول مجدى لقد خسر الجاهل سمعته ، وخسرت ، أنا الجنيهات العشرة .

وكان المقال يبدأ هكذا :

يقول همفرى بوجارت فى كتابه « الشمس طالعة » ان كل ما يجرى على أرض الناس لا يمكن أن يدوم إلا بعد فوات الأوان ، ولكن « شارل بواييه » يرد عليه زعمه هذا فى مؤلفه الضخم « من هنا حتى نعود » فيقول : ان الإنسان الفرد

ليس ذا قيمة حقيقية إلا بالحلوى . وان الحلوى تفقد طعمها بمجرد أن ينسى الإنسان نفسه ، إذ أن الإنسان كالقرد ، يحلوه أن يتسلق الحياة ، حتى إذا تمكن من الوصول انداحت من حوله المآسى ، كما تنداح مياه بحيرة التمساح !!

واختفى مجدى بعد ذلك شهرا كاملا ، وقيل ان صاحب الجريدة « المثقف » أقسم أن يقتله بالرصاص .

فتلة المرسلات

ويسأم مجدى البطالة مرة أخرى فيبحث عن شيء جديد ، وسرعان ما يجد هذا الشيء فى باب إحدى المجالات الأسبوعية . إذ أرسل مجدى إلى المجلة خطابا رقيقا هذا نصه :

فتاة خمرية ، شعرها طويل ، جميلة جدا ، من أسرة محافظة ، دخل شهرى محترم ، ترغب فى مراسلة شاب ، منصب محترم ، لا يزيد على الأربعين ، طويل ، رياضى ، يهوى التحف والاسفار .

وينهاى على العنوان الذى ذكره مجدى مئات الخطابات من قضاة فى المحاكم ، ومحامين ذوى شهرة ، وأطباء مرموقين ، وطلبة مراهقين ، وصياع وذئاب ، وأولاد ناس ، وأولاد كلب . ويستمتع مجدى بقراءة خطابات الغرام العنيف الذى هبط فجأة على حضرات الروميوات ، ثم يعتنى بالرد عليها جميعا . وانقضت خمسة شهور قبل أن يكتشف بعضهم اللعبة . فقد ذهب بعض الروميوات الذين لم يستطيعوا الصبر إلى العنوان الذى ذكرته الخمرية ذات الشعر الطويل ، فإذا به نادى نقابة الصحفيين .

وذات مساء كان مجدى يجلس مع مأمون الشناوى فى منزل مأمون ، إذ لم يكن لمجدى منزل . وكان معهما مدرس وقور كان يتردد على بيت مأمون ليعطى أبناء مأمون دروسا فى اللغة العربية ، وكان المدرس - كما قلت - وقورا لا يحب المزاح . خجولا منطويا على نفسه ، وكان رغم فقره يتمتع بمظهر محترم ، وكان مجدى يخشاه ويتجنبه فقد كان دائم الحديث عن الجنة والنار ومعصية الله .

وفجأة ، دخل عليهم المخرج المشهور أحمد بدرخان ، وما أن عرف المدرس الوقور ان الزائر الجديد هو بدرخان ، حتى انقلب إلى النقيض ، وراح يصرخ ويزوم ، ويقفز كالثور ويتحدث بسرعة وبلهجة مضحكة :

— أستاذ بدرخان ، يا سلام ، المخرج ، يا ألف مرحب بتاع السيما ، يا حلاوة ، يا أهلا وسهلا ، يا ألف مرحب ، يا ألف نهار أبيض . أهلا أهلا ، وعندك فيلم دلوقت ، دا شىء جميل خالص ، طيب والنبى خدنى ، أى والله خدنى ، وحياة من جمعنا من غير ميعاد تاخدنى ..

— بس أخذك إيه ..

وهتف مجدى على الفور :

— خدو على قفاه .. !

وخرج المدرس من بيت مأمون ، ولم يعد على الإطلاق .

« تسريح » مزيف !

وعندما احترقت القاهرة ، وفرض فاروق الظلام على البلاد ، وأجبر الناس على الفرار إلى البيوت قبل المغرب كالأرانب . شهر مجدى لسانه على العهد كله ، واشترك فى المعركة إلى جانب الشعب كمقاتل يطلق « الكلام » على معاقل الطغاة ، فكانت كلماته أفنك من الرصاص ، وأشد

مفعولا من القنابل .

يروى مجدى نكتة عن أغرب ما حدث له تلك الأيام :
كنت ماشى فى السكة ، وفات ميعاد حظر التجول ، بصيت
لقيت عسكرى ورايا عمال يصرخ .. قف من أنت ، قف من
أنت ، رحت واقف مكانى ، جه العسكرى قدامى ومعاه بندقية
وسنكى وسألنى :

— معاك تسريح « تسريح » .

— أيوه معايا .

— ودينى .

يقول مجدى ، وضربت لخرة معى ، فلم يكن معى
تصريحا ، لقد خشيت أن أبلغه بالحقيقة فيفرز السونكى فى
بطنى ، فآثرت الكذب حتى تكون هناك فرصة للتفاهم .
وبحثت فى كل جيوبى عن شىء يصلح « تصريحا » فلم أعثر
على شىء ، فلم يكن معى بطاقة ، ولا شىء يشبه البطاقة
وكل ما عثرت عليه ، ورقة يانصيب .. (الدبة) ورقة عليها
أرقام ، وعليها صورة الدبة . وسلمت العسكرى ورقة
اليانصيب الدبة ، فأخذها منى وابتعد عنى قليلا ليلقى عليها
نظرة فى ضوء عمود النور . وغاب العسكرى طويلا ، ظل
يحدد فى الورقة أكثر من عشر دقائق ، وأنا أتوقع شرا خلال
كل لحظة ، فقد خشيت أن يفهم العسكرى اننى تعمدت
السخرية به فيطعننى بالسونكى ، أو يطلق على النار . وبعد
أن انقضت عشر دقائق كاملة ، تقدم العسكرى منى وصوب
بندقيته نحوى ، وقال لى فى لهجة الواعى الخبير وهو يشير
على ورقة اليانصيب وإلى صورة الدبة بالذات .

— لكن دى مش صورتك !

واستطاع مجدى أن يقنعه بأن الصورة له ولا أحد سواه ،

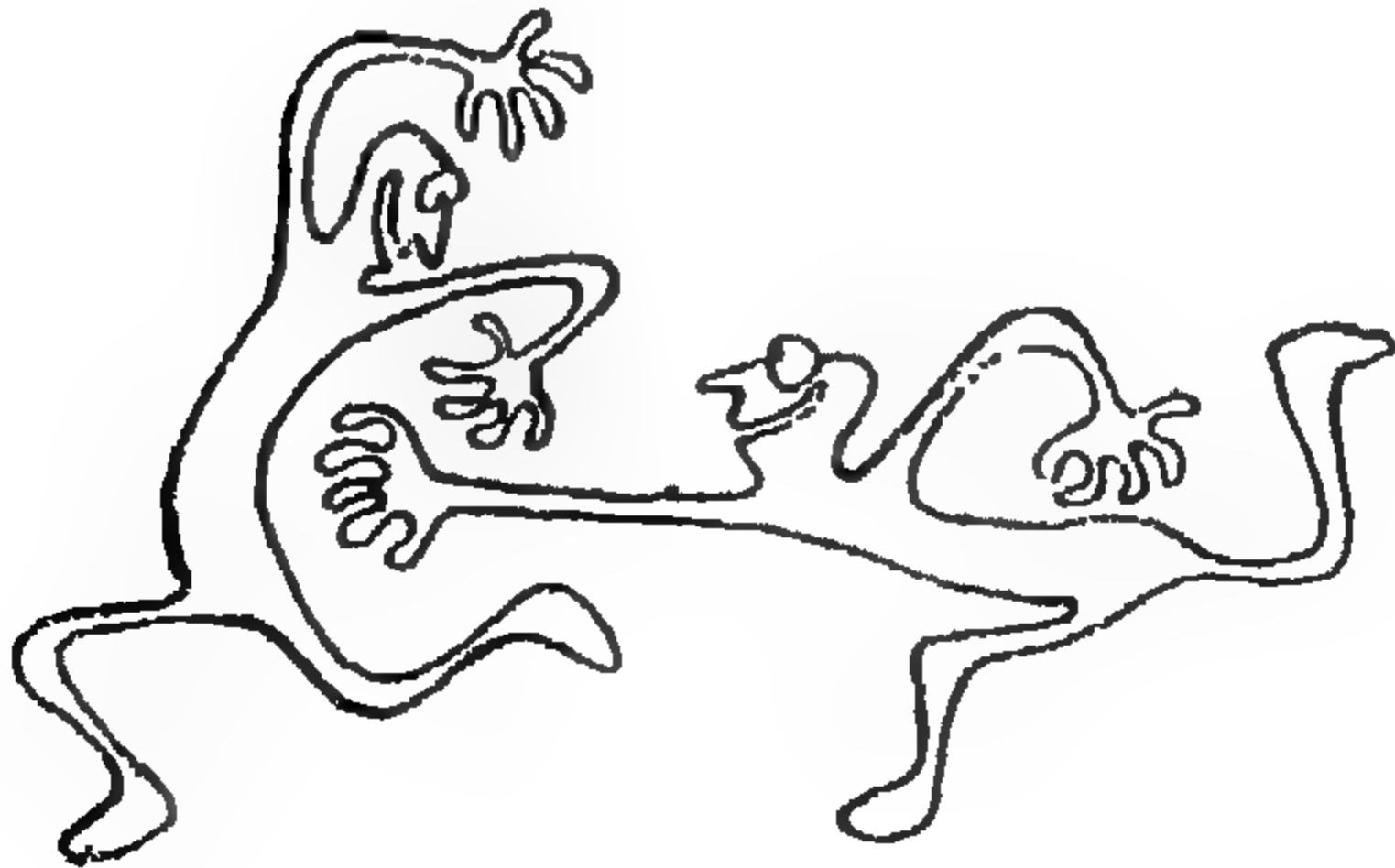
واستطاع أيضا أن يقنعه بمصاحبته إلى المنزل ، حتى لا يتعرض له أحد غيره .

وعاش مجدى حياته بعد ذلك يضحك ، ولكنه ضحك كالبكاء ، ويسخر سخرية مريرة من الأوضاع المقلوبة ، والنظم الحقيرة ، ويلعن الحياة والأحياء ، ويسب الدين والدنيا وكل الناس ، حتى الذين اعترضوا طريقه ، والذين تعقبوه وطاردوه .

ثم قدر لمجدى أن يشهد البعث ، فعاش حتى نشبت الثورة ، ولكنه لم يشهد إلا بدايتها .. ثم فجأة .. مات مجدى . وكانت حياته القصيرة الخاطفة أشبه بضحكة عريضة صافية من ضحكاته ، سرعان ما تدوى وسرعان ما تختفى وتتلاشى .

* * *

ومات مجدى ولم يبلغ السادسة والثلاثين ، وهكذا ذهب آخر ظرفاء العصر ، وأطيبهم قلبا وأتعسهم حظا ، فقد كان أتعس حظا .. حتى من عبد الحميد الديب .



● بيرم التونسي



الشائير الساخر

بيرم التونسي

■ ■ « فنان الشعب لم يستجد يوما بفنه ،
ولم يطلب اجرا ثمنا لموقفه ، وعاش
ومات يقول فنا .. لا يخطب ولا يصرخ ،
لأن الفن اقوى من كل شيء .. »

بـيرم التونسي

كان نموذجاً للفنان الملتزم ، واشتراكياً حقاً كان الاشتراكية ميكروب يسرى في دمه ، وفي سبيل هذا الموقف الرائع دفع حياته ، ولم يدفعها مرة واحدة ، ولكن دفعها بالتقسيت وقضى عشرين عاماً يتسول في باريس ، ويتصعلك على رصيف ميناء داكار ، ويتجول كالذئب حتى بلده تونس ، ويرتعث من شدة البرد تحت جبل ايسون في الشام ..

فنان الشعب لم يستجد يوماً بفنه ، ولم يطلب أجراً ثمناً لموقفه ، وعاش ومات يقول فنا ، لا يخطب ولا يصرخ ، لأن الفن أقوى من كل شيء ، عاش رغم أنف الصياع الذين شتموه ، والحساد الذين حقدوا عليه ، وأولاد الذوات الذين احترقوا الفن لأنه موضحة الموسم ، وهو يقول في كل شيء وأى شيء ، لأنه عاش الحياة كلها عاشها بالطول وبالعرض ، وبالعمق ، كذلك عاش محتجاً ، لا يهادن ولا يماين ، محترق الأعصاب كأنه شمعة تحترق ، زاهدا كأنه غاندى ، لا يجد حتى معزة يسحبها وراءه ..

واكتشف - والتاريخ لا يزال فجراً - سر المشكلة ..
المشكلة ليست ~~مادية~~ ولكنها اجتماعية من الدرجة الأولى ، وعساكر الانجليز ليسوا كل المشكلة ، ولكنهم جزء منها ، توزيع الأرزاق هو المشكلة الحقيقية ، والتهليب هو المرض الذى يجب أن يحارب .

ورفع سيفه ضد المهلبتية والخطافة وقطاع الأرزاق،
موقف عظيم من فنان عظيم ، يرتفع به إلهامه إلى مرتبة
النبوة ..

ففى الوقت الذى كانت فيه غاية الكفاح ، صراخ حاد من
الحناجر « مصر والسودان لنا وانجلترا ان أمكنا »
و « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » كان هو يرى المشكلة
بالعكس ، فليس الاستقلال أن ترحل عساكر الانجليز من
مصر ، بل الذى يجب أن يرحل هو استمطى وبنايوتى وكل
الخواجهات المتمصرين وكل المصريين المستخوجين .

يقول معريا هؤلاء الغرباء المتمصرين :

« والقطن برضه لمزراحى ولقرداحى
وابن البلد يقعد ماحى فى بلاده يقيم
أقطانه هو اللى زرعها واللى جمعها
ويوم ما باعها ما جابت له حق البرسيم
بنايوتى يقبض ويحصل ودا بيوصل
ويجرى دايم ما يحصل ولا حتى بهيم » .

هنا المشكلة .. أجير يطفح الكوتة طول النهار ولا يكسب
شيئا ، وخواجا مجعبز على القهوة طول النهار ، يلعب الطاولة
ويقبض ثمن كل شيء !!

~~إلفنان العظيم وضع يده على المشكلة ثم راح يفوص فيها~~
حتى القاع .. ناس تمشى ولا تجد ما تأكله ، وناس تأكل وليس
لديها ما تعمله . ويكتشف الفنان عالما غريبا اسمه
السمسرة .. أى شحط معه ثروة يدخل بها السوق .. ليحصل
فى النهاية على ضعف ثروته .

وعن هؤلاء السماسرة يقول :

ولا يبحث ولا يبدر
ولا يسبك ولا يبطر .
ولا يحصد ولا يجمع
ولا يخرط ولا يقطع
ولا يشحن ولا يخزن
ولا يوزن ولا يدفع
وهو الغانم الاسلاب
وغيره يضرب المدفع
وإذا السوق ارتفع سالك .
وإذا السوق انضرب سالك
وغير مستول عن التالف
وغير مستول عن الهالك
وبالتليفون يجيب مليون
وميت مليون ولا يشبع
وله يوم الصعود فرصة
وله يوم النزول فرصة
وهدم بيوت وخلق تموت
بحسرة وهو ممتع

* * *

هذا فنان مثقف ، وسر فنيته أنه يحس المشاكل بمزاج
مصرى . حتى فى الغربة وهو بعيد ، صايع وضايح وغلبان ،
يظل يبحث عن شيء ينقصه :

لا سطل خروب يسعفتنى
ولا ابن نكتة يكيفنى
ما يقصف العمر ويفنى
غير الخلايق بعيلها .

وهو لا يسكت أبدا ولا يهدد ، حتى وهو في تونس .. في
المنفى .. يتحرك ضميره فيتحرك لسانه :

والمغربي المسلم راخر

أبو زر فاشوك

لما انتقدته فزع قاللي

يلعن بابوك

وأنا اللي قصدي أشوف قيده

يصبح مفكوك

لقيته فرحان بيه راضي

طيب مبروك

وهو اذا دخل معركة لا يداور ولا يناور ، بل يقتحمها

بالطريق المباشر لأنه صاحب ضمير حي :

وجابوك الانجليز يا فؤاد قعدوك

تمثل على العرش دور الملوك

وخلوك تبهدل في أمة أبوك

ومين يلقوا مثلك مغفل ودون

* * *

وهو لا يكتفى بهذا الكلام المباشر ، انه ينهش الطاغية في

عرضه ، انه فنان يفهم مزاج الشعب ، وشعبنا قد يغفر كل

شيء إلا التقريط في العرض .. انه يسخر من الطريقة التي

ولد بها الأمير فاروق .. والشعب فيها يتهامس في السر بأن

الأمير قد ولد بعد أربعة أشهر من زفاف أمه نازلي من

السلطان أحمد فؤاد .. ويتلقف بيرم التونسي هذا الهمس ،

ليجعل منه قنابل يفجرها في وجه السلطان :

مرمر زمانى يا زمانى مرمر

البنت ماشية من زمان تتمخطر

والغفلة زارعة فى الديوان قرع أخضر
يا راكب الفيتون وقلبك حامى
اسبق على القبة وسوق قدامى
تلقى العروسة زى محمل شامى
وأبوها يشبه فى الشوارب عنتر
وغطى زهر الفل فوقها وفوقك
وجبلها شبشب يكون على ذوقك
ونزل النونو القديم من طوقك
يطلع كويس لا الولد يكبر
ويوم ما ينزل فى الجاكتة الكاكي
وسنة خيل والقمشجى الملاكى
تسمع قولتها

العافية هابلة والولد متشطر
الوزة من قبل الفرخ مدبوحة
والعطفة من قبل النظام مفتوحة
ولما جت تتجوز المفضوحة
قلت اسكتوا خلوا البنات تستر .

* * *

ويحشد القصر كل جواسيسه وبوليسه ضد بيرم
التونسى ، ولكن بيرم التونسى لم يكن مصرى الجنسية حتى
تلك اللحظة ، ولعله سوء الحظ - سوء حظ الملك - أن يكون
بيرم التونسى متمتعا بالحماية الفرنسية ولو انه كان مصريا
لحظة كتابة هذا الزجل الرهيب لتدلى بيرم التونسى من حبل
المشنقة . ولكنهم فى البداية اكتفوا بضربه ، واستأجروا
بلطجيا جزائريا يعيش فى مصر اسمه يوسف شهيدى ليتعقب
بيرم التونسى ويقتله .. وأدى الرجل مهمته على الوجه

الأكمل ، ظل يتعقب بيرم ويضربه كلما يلقاه ، ولكن يبدو أن
الضرب لم يكن كافيا لقطع لسانه ، فنقوه .. ووقف على
رصيف الميناء يوم عيد الأضحى ، والدموع تغمر عينيه ،
ينظر إلى مصر نظرة أخيرة :

يوم الدبايح كان آخر مواعيدك
وقفت لك فرحان أنصب رايات عيدك
وافرش لك الريحان واسمع زغاريدك
زعم غراب البين فصلت أكفانى
ياريته كان فى منام يصبح ويتفسر
أوحكم بالإعدام على القاسى بيستر
ما كان تشوف العين حال اللى بكانى .

* * *

ويسمع وهو فى المنفى ، أن كل شىء فى مصر ينهار
ويتحلل ، رائحة العفن فى كل مكان ، والتفسخ فى كل شىء ،
وعبد المنعم أبوبثينة أصبح أميرا للزجاليين :

خراب ما يحتاج لمعاينة
وفن بايز وأهى باينة
أميرى جوز أم بثينة
وأنا الرعية وعيالها
يا مصرى هجرك يكفانى
يا عاملة قمع ونسيانى
ويوم ما هارجع لك تانى
هتبقى راجعة براسمالها .

* * *

الثائر .. الساخط .. يجد وقتا للضحك ، كلماته تقطر
سما ، وتقطر حلاوة ، ليس فى العالم أكثر ضراوة من رجل

ضائع يضحك .

كتب زجلا يرثى به سجانا اسمه غانم :
وانشال سى غانم مرابعة بعد ندب كفاه
وندب كان يستحقه فى حياته قفاه
ويصف حفلة رقص فى باريس :
يا صاح وحقك ليس على
من راح المرقص من حرج
جمعوا الفتيان مع النسوا
ن فى الامر المنبهج
ما كان مغنى القوم يد
ق الدف بلحن منه شجى
حتى انفرطت وحداتهم
ثم ازدوجت بالمزدوج
رجل وقرينته التصقا
بصدر العز وبالمهج
فعلى كتفيه معاصمها
ويداة بخصر ذى عوج
فاذا انجذبت فلمنجدب
واذا اختلجت فلمختلج
واذا نقلت قدما رفعت
قدما والرفع بلا عرج

* * *

وهو فنان صحيح ، ولكنه مصرى بسيط فيه كل خصائص
المصرى البسيط ، حتى مزاجه مصرى ، بلدى ، وهو يحب
النسوان ، وهذه الكلمة بالذات « النسوان » عنوان قصيدة
فى ديوانه ، أنا شخصا اعتبرها أرق ما كتب فى الأدب

العربى عامة عن النسوان :

فى كل عام للورد أوان إلا النسوان
وبقدرتك نابتين ألوان أبيض وأحمر
وانت اللى تعلم وأنا أجهل إيه أجمل
من الخدود اللى لا تدبل ولا تتغير
ودى العيون اللى أشهد لك بها وأسجد لك
دى خلت الطاغى انقاد لك والمتكبر
والشفيتين اللى فالفهم كنت خالقهم
للابتسام والا رازقهم دا انت تحير
العبد يعشق بالقوة عشق لجوه
وكمان جهنم ؟ إيه هو ؟ ما احناش معشر
بذمتى انت اللى جاذبنى يا معذبنى
ويللى ذوقك يعجبنى لما تصور
لك صنعة فى العين والحاجب بها تتعجب
ونقول وجود الله واجب مين بيه يكفر
وليك قوالب فى الأجسام غلب الرسام
يقلدك بحجر ورخام يلقاك أشطر
يا ست أم زناق محبوبك وقميص مفكوك
حطى على القلب المشبوك إيدك يعمر
ويام نص ملایا حریر والنص يطير
على أكتاف أنا عقلی صغير غطى المرمر
ويللى ساقك يسوى رقاب حارت الباب
فى لون حقیقته ان كان بشراب والا مقشر
يا مسلمين الله يا حريم أنا مالى غريم
غيركم أروح وياه فى جحيم يوم المحشر .

وهو يسخر من المؤمنين أصحاب الحاجات :
يارب سلطان جمالك يتعبد للذات
خالص لوجهك لا للنيران ولا الجنات
لكن عبيدك وخلقتك يعبدوك لغايات
وصبحوا وأنا عبد منهم كلهم ترسات

* * *

وكل شيء في الحياة يستحق السخرية ، وهو صاحب عين
نفاذة لا تفوته شاردة ، وهو لأنه صايع ، ولأنه ثائر ، تقع عينه
على منظر عادي بالنسبة للرجل العادي ولكن هو الفنان ،
يستخرج من المنظر العادي صورة خالدة :

أربع عساكر جبابرة يفتحوا برلين
ساحبين بتاعة فجل جاية من شربين
أنا قلت إيه الحكاية قال خالفت الجوانين
طب اشمعنى ميت ألف واحد فى البلد سارحين
يشرطوا فى الجيوب ويكسروا الدكاكين .

* * *

وعلى نفس الطريق ، يقهقه فى صباه قهقهة دامية :
يا بائع الفجل بالمليم واحدة
كم العيال وكم للمجلس البلدى
إذا الرغيف أتى فالنصف أكله
والنصف أجعله للمجلس البلدى
كأن أمى أبل الله تربتها
أوصت فقالت أخوك المجلس البلدى .

* * *

ويصوع ويجوع ، ثم يعود آخر الأمر مثخنا بالجراح
.. مضرجا بالدم .. ولكنها على أية حال ، عودة إلى البلد

الذى أحبه بشغف ، وإلى الشعب الذى عبده بجنون ، وعلى
رصيف ميناء بورسعيد ، يهتف بكلمات كأنها قطرات دم
تسيل من قلبه :

غلبت أقطع تذاكر وشبعت يا رب غربة
بين الشطوط والبواخر ومن بلادنا لأوربا
وقلت ع الشام أسافر إياك الأقبلى تربة
فيها أجاور معاوية وأصبح حماية أمية
فى بورسعيد السفينة رسيت تفرغ وتملا
والبياعين حوطونا بكارت بوسنتال وعمله
لكن بوليس المدينة ما تزوغش من جنبه نملة
يا بورسعيد والله حسرة ولسه يا اسكندرية
هتف بى هاتف وقاللى انزل ومن غير عزومه
انزل دى ساعة تجلى فيها الشياطين فى نومه
انزل دا ربك تملى فوقك وفوق الحكومة
نطيت فى ستر المهيمن للشط يا حكمدارية
وأقولكم بالصراحة اللى فى زماننا قليلة
عشرين سنة فى السياحة وأشوف مناظر جميلة
ما شفت يا قلبى راحة فى دى السنين الطويلة
إلا أما شفت الملاية واللبدة والجلابية .

* * *

أخيرا عاد .. وسيعيش الآن فى مجتمع الأرزقية ، يأكل
عيشه بحذر ، بعد عشرين سنة طويلة من الصياغة
والضياعة . اكتشف ان كل شىء لا يزال مكانه .. الخونة فى
الصدارة ، وأصحاب القضايا العظيمة فى الذيل لا يشعر بهم
أحد .

لكن هل يسكت بيرم التونسي ؟ هل يهدم ؟ هل يسترزق ؟

انه على أية حال سيحاول أن يعيش وسيقاوم ما استطاع ،
ويطلبون منه فى النهاية أن يؤلف شعرا للأسرة المالكة ، آخر
ما كان يتوقعه بيرم ولكنها فرصة على أية حال ، وسيطلق
العنان للسانه ، وسيمدح ولكنه سيجرح فى الوقت نفسه :

ومزارع جوها دافى
وطولها وعرضها وافى
وليه يمشى ابنها حافى
يمد الأيد ويطويها
وليه الباشا والوالى
يجبهم بابها العالى
وليه ما يكونش طوالى
حاكمها من أهاليها .

* * *

تصوروا .. هذا مدح فى العائلة المالكة ، ولأول مرة فى
التاريخ بعد قمبيز ، يصبح لمصر حاكم مصرى من أهاليها
ويعيش بيرم التونسى حتى يرى المعجزة تتحقق ويصرخ فى
ميكروفون الإذاعة ليلة خروج الطاغية من مصر ، وصوته
مبلل بالدموع :

يقوم من سراية يروح فى سراية
ويبعث عشايا بنرمين هدية
وخالتى الإذاعة تقول كل ساعة
وعظيم الثنايا جزيل العطية
تحية لابن البلد الفنان الإنسان .. محمود بيرم
التونسى ..

* * *

الحياة في إنسان

■ ■ هذه السطور كتبتها عن كامل الشناوى وهو حى ، فلما مات فكرت فى كتابة فصل جديد .. ولكنى عدلت ! .. ولأسباب احتفظ بها لنفسى . لنترك كامل الشناوى التاريخ .. للتاريخ ، ولنتكلم عن كامل الشناوى الحى ..

كامل الشناوى

كان كامل الشناوى رجلا فريدا بين الرجال .. أعداؤه يكرهونه على طول الخط ، واصدقاؤه يحبونه على طول الخط .. والسبب .. كامل الشناوى نفسه .. فهو إذا أحب ، أحب بلا قيد ولا شرط ، وإذا كره ، كره بلا قيد ولا شرط ، وهو مثل القائد الحاسم ، إذا هاجم ، دمر هدفه تماما ، وإذا انسحب ، مضى لا يلوى على شيء ..

السر

وعلاقته بأى إنسان تجذرها صفات هذا الإنسان نفسه ، فإذا كان إنسانا وسطا .. فكامل يكرهه ، « فليس أبغض على قلبى من الشيء الوسط ، ويستوى عندى نصف الأذى ، ونصف المتعلم » !

وهو لهذا السبب نراه يعشق الأذكياء والأغبياء معا .. ويكره الذين يمتازون بنصف ذكاء ، والذين يتمتعون بنصف غباوة .. ولكن - وهنا العجب - نرى كامل الشناوى لا يطبق هذا المذهب على سلوكه هو نفسه فى الحياة .. مثلا ، انه يعشق الحرية ، ويتناضل فى سبيلها .. ولكن نصف نضال .. وهو يتشد العدل ، ويدافع من أجله ، ولكن نصف دفاع .. وهو يحمى المواهب ويحتضن أصحابها ، ولكن أيضا ، نصف حماية ، ونصف احتضان ..

ولا بد أن يكون وراء هذا السلوك سر من الأسرار .. ربما

كان السر عقدا نفسية تراكمت بمرور الزمن على نفس الصبى الصغير الذى خرج من السيدة زينب ، ومن بيئة يحكمها ويتحكم فيها سلطان الدين ، ليتربع هذا الصبى الصغير آخر الأمر على رأس المجتمع ، يهره ، ويدهشه ويشترك فى توجيه مصيره ، وصنع أحداثه ، لفترة طويلة من الزمان .

البحث عن الحياة

ولقد بدأ كامل الشناوى حياته طالبا فى الأزهر ، ثم ما لبث أن هجر الدراسة فيه كافرا بالمناهج العقيمة ، بالعلوم الجامدة التى انفصلت عن عصرنا عشرات القرون ، بالجهل النشط الذى كان ميزة بعض علماء الأزهر فى تلك الأيام . وخرج كامل إلى الحياة ينشد البحث عن شىء يحن إليه ويحبه ، عن الشعر ، عن الفن ، عن الموسيقى ، عن الغناء .. وبمعنى آخر ، خرج ينشد البحث عن الحياة . فنراه ينضم إلى جمعية للشعراء ، ثم يذهب إلى حافظ محمود ليتعلم منه فن الخطابة والإلقاء ، ثم يبعث إلى جريدة الأهرام بين الحين والحين بقصيدة من نظمه ، ولكن القليل من هذه القصائد كان يرى النور ، أما الغالبية العظمى فكان يجد طريقه بسهولة .. إلى سلة المهملات .

المقلب رقم ١

يقول كامل الشناوى : كان المشرف على الصفحة الأدبية فى الأهرام ممن يطربون للألفاظ الغريبة الميتة ، كجلمود صخر .. وأشياء من هذا النوع ، ولم يكن يستسيغ أبدا هذه المغانى الجديدة ، ولا هذه الرقة التى أخذت تسيل من شعر شبان ذلك الجيل ، !

وفكر كامل فى وسيلة ليقنع بها الأستاذ المشرف على

الصفحة بأن شعره يستحق النشر ، ووجد الوسيلة أخيرا في « مقلب » فيه كل الاحتجاج ، وكل السخط وكل الثورة التي تعتمل في نفس كامل ، وفيه قبل هذا وبعد هذا .. فن جميل . ومن هنا ، ستظل « المقالب » من هذا النوع هي هواية كامل الشناوى ، وطريقته المثلى في التعبير عن رأيه بصراحة في الأشخاص والأحداث .

فضيحة

ونفذ كامل الشناوى « المقلب » كتب قصيدة من نوع :
سلاما صباحا لا يعم ولا يجرى
ولا الماء بها نفسى ولا تدرى
وهات يا شعر من هذا النوع الذى يعجب الأستاذ
المشرف على الصفحة ، ثم ذيل القصيدة بإمضاء شاعر
مشهور كانت له شنة فى تلك الأيام . وطوى القصيدة ، وبعث
بها إلى الأهرام . ونشرت الأهرام القصيدة .. وكانت
فضيحة .

الصدقة والشعر

وهكذا أيضا .. دخل كامل الشناوى الأهرام ، محررا بها ،
ثم مشرفا على الصفحة .
وكان صيته قد بدأ رغم حداثة سنه ينتشر فى كل
الأوساط ، ودخل الشاب السمين الأسمر الذى يحفظ الشعر
ويقرضه ، ويقول النكتة ويجيد حبك المقالب ويقلد الأصوات
والحركات ، دخل القصور ، وجالس الوزراء ورؤساء الوزراء ،
وأصبح صديقا لصاحب القبضة الحديدية .. محمد محمود .
ولكن - وهنا العجب أيضا - نرى الشاعر كامل الشناوى
الذى أصبح صديقا لمحمد محمود ، لا يمدح بشعره هذا

الحاكم بأمره .. ان القصيدة الوحيدة التى قالها فى مدح زعيم .. كانت فى مدح مصطفى النحاس ، بالرغم من أنه لم يكن صديقا له « وكل ما هناك انه يستحق شعري » ! لماذا ؟

لأن النحاس كان ممثل الشعب بحق فى ذلك الوقت ، كان أعظم الزعماء ، وإذا كانت الصداقة لرئيس الوزراء .. فالشعر يجب أن يكون للزعيم .

عالم جديد

ويسأله المرحوم تقلا باشا عما إذا كان له أصدقاء من بين الوزراء فيجيبه كامل الشناوى ببساطة : « اننى أسهر كل ليلة مع محمد محمود » .

ويخبط تقلا باشا كفا بكف ، فأمامه صحفى عبيط يصادق رئيس الوزراء .. ثم يكتب فى جريدته شعرا . ويصرخ تقلا باشا فى وجه الصحفى الفشيم :

— حاول أن تحصل على كل الأخبار من محمد محمود .
ويجيب كامل بنفس البساطة :

— سأحاول ..

ويخرج من مكتب تقلا باشا إلى سراى محمد محمود .

احتراف الصحافة

وفى مجالس الوزراء والزعماء لا يكون الحديث نكتا فقط ولا دردشة فقط ، بل ان الذين يصنعون الأخبار ، يضطرون حتى فى حياتهم العادية إلى الدردشة فى الأسرار والأخبار والأنباء ، وهو الكنز الذى يبحث عنه كامل الشناوى الشاعر الذى قرر أن يكون صحفيا . ومن خلال الدردشة والحديث ، يلتقط كامل الشناوى خبرا هاما ، ان أمين عثمان سيسافر إلى القدس ليجتمع بأحد المسئولين الانجليز ، وأن

مفاوضات على مستوى عال ستدور هناك ، بعيدا عن أعين الصحفيين ورقابة الشعب ..

ويسرع كامل الشناوى إلى الجريدة ومعه الخبر ، ويعيد تقلا باشا صياغة الخبر وينشره منسوبا إلى مراسل الأهرام فى القدس ، ويحدث الخبر هزة فى كل الأوساط ويتلقى كامل التهنة ، ويقبض مكافأة ضخمة ، أكدت عزمه الذى كان قد استقر على أن يتحول بكل طاقاته إلى احتراف مهنة المتاعب والقلق .. الصحافة .

مقلب مضاد

ويدرك محمد محمود بذكائه أن كامل الشناوى المحرر بالأهرام ، وصديقه وجليسه هو مصدر الخبر ، ولكنه « يبلعها » ويسكت لجولة قادمة ، ليلقن كامل الشناوى درسا لا يتساه .. وذات مساء ، وفى سراى محمد محمود وكامل الشناوى جالس ينصت فى اهتمام ، يعلن رئيس الوزراء خبرا ، هو فى ذاته سبق صحفى عالمى . أن جوبلز وزير الدعاية فى حكومة هتلر قد وصل إلى مصر سرا ، ونزل بفندق سميراميس ، وأنه التقى بمحمد محمود فى ظلام الليل ، ودارت بينهما أحاديث خطيرة . ويستأنن كامل الشناوى من رئيس الوزراء ويخرج مسرعا إلى الأهرام .. إلى مكتب تقلا باشا .

ويرتاب رئيس التحرير المدرب فى الخبر ، فيرفع سماعة التليفون ليتصل بفندق سميراميس ، ثم بجميع الفنادق التى يحتمل أن يأوى إليها وزير خارجية ألمانيا ، واتصل بالمطار وبرجال البوليس ، وبكل مكان له علاقة بوصول جوبلز . ولكن الجميع يؤكدون أن الخبر كاذب . ويضطر تقلا باشا فى الفجر إلى الاتصال بمحمد محمود ، وما أن يسمع رئيس

الوزراء صوت تقلا باشا حتى ينفجر ضاحكا ، وينهى
المحادثة بكلمة لا تزال ترن فى اذن كامل « عشان كامل
يتعلم » !

وفعلا ، تعلم كامل الشناوى من يومها أن يكون حذرا ،
ولعل الحذر أصبح أبرز صفاته .. بعد الظرف .
وتمضى الأيام بكامل الشناوى إلى الأمام ، وهو يتنقل من
نصر إلى نصر ، وشهرته تطبق الآفاق ، وصيته يدوى
كالطبل ، والمال ينهال عليه كما تنهال المياه من جوف
القرب ، ويتبخر من بين أصابعه بأسرع مما يأتى ، وهو يحب
المال ويطلبه ويسعى فى سبيله ، ولكنه يحبه - كما يقول
أوسكار وايلد - كالجنتمان - يحبه لينفقه ، ويقبض عليه
ليتركه يسيل من بين أصابعه !

ويلتقى كامل بوجوه كثيرة ، وأصناف شتى من الناس
 وأنواع مختلفة من النفوس ، وألوان لا حصر لها ، عباقرة
 وأغبياء ، وزراء وصعاليك ، فنانون وأدعياء ، أصحاب
 مواهب ، وأصحاب سلطة ، أصدقاء وأعداء ، وكامل
 الشناوى يتفرج ويتأمل ويضحك ، ولكنه أبدا .. صديق
 للجميع ..

ولكن ، كيف يجد القدرة فى نفسه على أن يظل صديقا
 للجميع ، وهو الفنان الذى يفعل ويضطرب ويتألم ويصرخ
 أحيانا فى شعره وفى فنه صراخا رهيبا عنيفا سيظل يدوى
 أبد الدهر فى سمع الوجود .

لا أحد يدرى ؟

أنا نفسى سألته هذا السؤال ، ولكن بطريقة أخرى :
— كيف تستطيع أن تنافق كل هؤلاء الناس ؟

ويبدو أن السؤال كان قاسيا على قلب الشيخ الذى بلغ

الخمسين فقال وهو يكبت فى نفسه غضبا ثائرا :
— تعودت أن أجمال الناس ، وما تسميه أنت نفاقا ،
أسميه أنا مجاملة .

وفى سبيل هذه المجاملة تزرع نفس كامل الشناوى تحت
أثقال من العذاب !

أبرز صفاته

ومن أبرز صفاته انه يستطيع أن يشم رائحة موهبة على
بعد ألف ميل ، وهو لا يشمها فقط ولكنه يسعى إليها ،
ويجذبها نحوه ، ويجاهد فى سبيل أن يدفع بها خطوات
واسعة إلى الأمام .. وإذا كان مكتب الشناوى صالونا يلتقى
فيه كل مساء رجال الأدب ورجال الفكر ، ورجال الفن ، ورجال
العلم ، ورجال فقط ، وأشباه رجال ، فباب كامل الشناوى
طريق للمواهب الصغيرة إلى المجد والشهرة .. وإذا كان
وراء كل عظيم امرأة ، ف وراء كل فنان شاب .. كامل الشناوى
وراء الأدعياء أيضا ، وراءهم بلسانه ونكاته وقفشاته ..
ولقد ذكرت من قبل أن كامل الشناوى اختار لنفسه طريقا
وسطا فى الحياة .. ينشد العدل ويدافع فى سبيله ، ولكنه
نصف دفاع .. ويناضل من أجل الحرية .. ولكن نصف
نضال .. ومن أجل هذا أيضا خاض كامل الشناوى غمار كل
المعارك التى خاضها الشعب ، ولكنه لم يدخل السجن أبدا ،
فقد كان يخوض المعارك عندما يكون الجو مناسبا للقتال ،
حتى إذا هبت العاصفة أثر كامل أن ينحنى لها حتى تمر ،
فإذا انقضت عاد كامل مرة أخرى إلى النضال .
ولعل هذا راجع إلى ذكاء كامل الشناوى ، وهو ذكاء من
فصيلة « الذكاء العام » للشعب .

لقد خاض الشعب المصرى عبر تاريخه الطويل آلاف المعارك وشهد عشرات الغزوات والمحتلين ، ولم يلبث الشعب ولم يستكن ، ولم يهدأ بل ظل يقاوم ويناضل ، وذهب كل الغزاة ، وكل الطغاة ، وبقي الشعب .. ذلك لأنه أثر ألا يدخل معركة حاسمة مع أعدائه قد تنتهى بإبادته ..

عاشق الليل

وكما يعشق كامل الشناوى الأدب والفن ، فإنه يعشق الليل ، الحياة عنده تبدأ عندما يبدأ الظلام ، ولا يأوى كامل إلى فراشه إلا عند الفجر ، ومن المؤكد أنه يكره الوحدة ، ولديه قدرة عجيبة على العمل وسط مائة إنسان ، وفى جو صاخب عاصف ، وهو يبدو دائما هاربا من شىء فى نفسه ، وطاقته المبدعة يفرزها قليلا فى الكتابة ، وكثيرا فى الكلام .. أنه يعشق الكلام أيضا .. وهو أسعد ما يكون عندما يتكلم فى الأدب ، وأنت تحس عندما تسمع كامل ينشد الشعر .. إنه يضيف إلى القصيدة معانى جديدة لم تكن تحس بها من قبل ..

ولكن هذا الولع الشديد بحب الكلام والذى أمتع الآلاف وأسعدهم قضى على كامل الشناوى كأديب ، إذ أنه لم ينتج أدبا على ورق ، وكل روائع كامل وأثاره الخالدة كانت طلقات فى الهواء .

وأعجب ما فى كامل أنه وهو الذى يقدر النكتة ويعشقها ويضعها أحيانا فوق كل اعتبار ، يفرغ من النكتة ويرهبها إذا كانت مصوبة إليه ، صحيح أنه يحب النكتة ، ويطرب لها ، ويضحك من أعماقه عليها ، على شرط أن يكون هو قائلها ، وفى جلسة مريحة ، وبين أصدقاء أعزاء ، ولكنه يخاصم النكتة ويكرهها إذا كانت ضده ، إذا كانت تعنيه .. أن موقفه

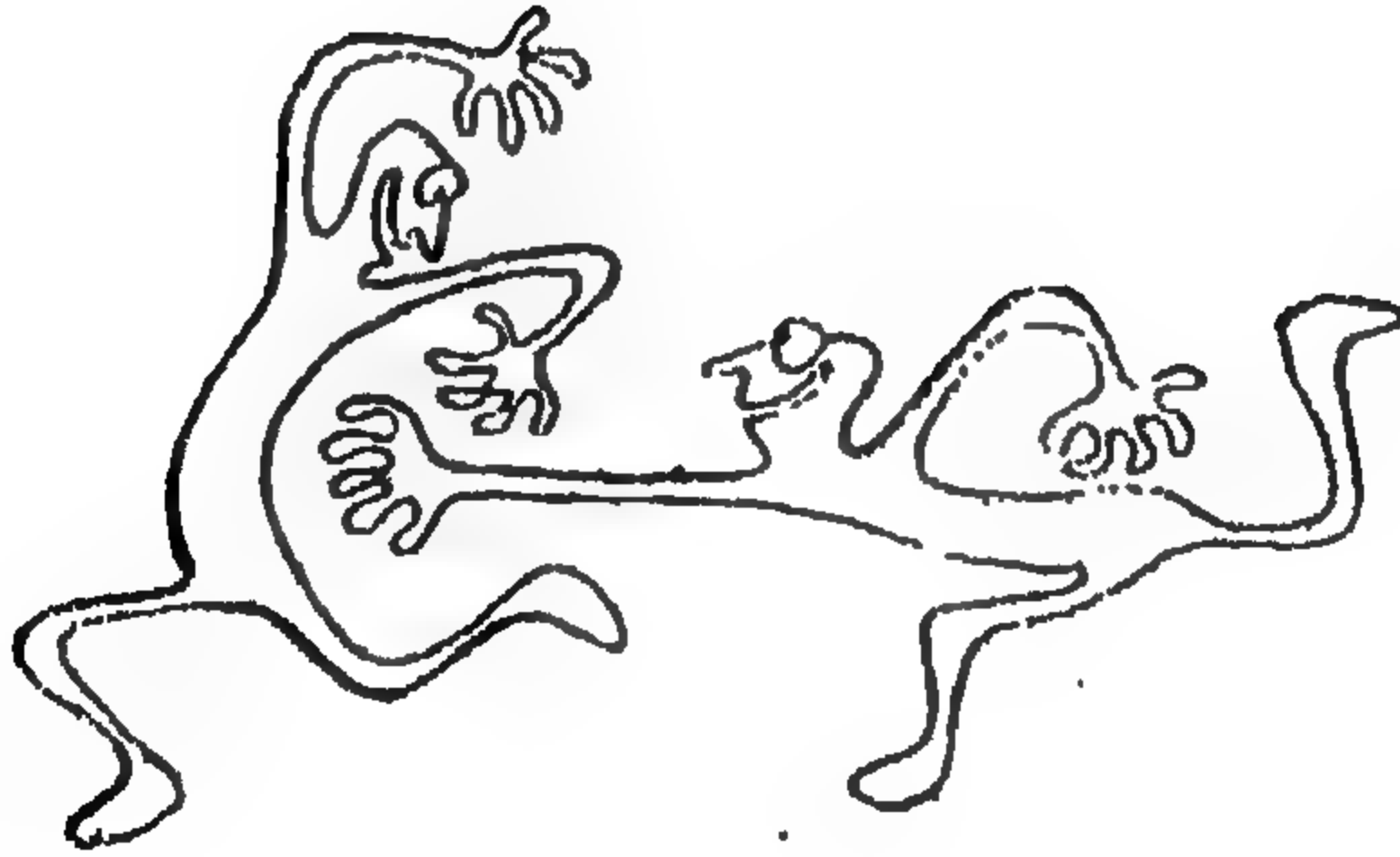
منها كموقفه من المعارك ، يخوضها إذا كانت لا تقضى عليه .

ومهما يكن الأمر ، فقد ذاق كامل الشناوى كل ألوان الحياة ، ذاق خيبة الأمل ، وذاق الفشل ، وتجرع النجاح ووصل إلى القمة ، وربح الألف ، وعاش كالمهراجات ، وأنفق كل ما ربح ، وعرف عشرات الألف من الناس ، وأحب وتآلم وشعر بالرضا ، وشعر بالسخط ، وكان دائما نائرا على كل شيء ، حتى على نفسه .. ولكنه استطاع ببراعة وبذكاء أن يسير على حبل الحياة دون أن يسقط .. وعاش حياته كما انتهى أن تكون حياته ، واختلفت صورته عند الناس ، فمنهم من يعبده مازحا ، ومنهم من يعتبره فنانا ، وهو عند البعض أديب ، وعند الآخرين صحفي ، ولكنى أعتقد انه كل هذه الأشياء ، وانه إنسان ، وإنسان فريد من نوعه ، جمع فى نفسه وبين جوانحه كل ما فى الحياة العريضة المتلاطمة ، من متناقضات ، وببساطة اننى أعتقد ان كامل الشناوى هو .. الحياة ..

وليعدرنى القارئ إذا ضربت صفحا عن نكات كامل الشناوى وقفشاته ، فهى شائعة ذائعة على كل لسان . وليعدرنى كامل الشناوى نفسه إذا كنت قد أخطأت ، وهذا الذى كتبته ليس تاريخا لحياة كامل الشناوى ، وإلا لكنت احتجت إلى مجلد ضخم قد تنتهى صفحاته قبل أن ينتهى الحديث عن كامل الشناوى ، ولكنه مجرد انفعال شخصى بأستاذ زاملته حيناً ، وصاحبته حيناً ، واتفقت معه حيناً ، ولكنى أحببته على الدوام ..

أمتع هواياته

وبعد ، ان قصة الصبى المعم الصغير الذى خرج من السيدة زينب ، وهرب من الأزهر ، ليتربع على رأس المجتمع ويشترك فى توجيهه وصياغة مصيره لفترة طويلة من الزمان ، قصة هذا الصبى لم تنته بعد ، وأغلب الظن انها لن تنهى أبدا .. فلقد أثر كامل الشناوى فى عصره كما تأثر به ، وأثر فى العشرات الذين تقلمذوا عليه ، والذين أعجبوا به ، والذين شغفوا بفنه .. وسيظل كامل الشناوى طرازا فريدا بين أدباء العصر ، وسيظل بابا لكل الموهوبين من الشباب إلى الجنة ، وستبقى حياته .. أعظم إنتاجه ، كما كانت الحياة عنده .. أمتع هواية لديه .



ليس بعد الضحك ذنب !

■ ■ « إذا كان ليس بعد الكفر ذنب :
فليس بعد الضحك شيء أكثر فائدة
للإنسان »

ليس بعد الضحك ذنب

إذا كان ليس بعد الكفر ذنب ، فليس بعد الضحك شيء أكثر فائدة للإنسان . بشرط أن يكون الضحك بواسطة .. فن عظيم ! والشعب المصري شعب ضاحك بطبعه ، علمته سنوات الذل والكبت والعدوان أن يسلي همه بالنكت والتأليس والضحك على الفاضى والمليان ! ولذلك كان من الصعب أن تكون ساخرا في مصر ، إذ كيف يستطيع فرد واحد أن يضحك شعبا من الساخرين العظام ! .. والنكتة المصرية مثل الطرشى والليمون المعصفر والطافيا .. معتقة وحرارة وكاوية تنطلق أحيانا كالرصاصة تندب في الضلوع ! ..

و أول نكتي شهير في مصر كان يعيش في عهد كافور الأخشيد ، وكان اسمه سيويه المصري ، وذلك لغرامه الشديد بالفصحى ، وتعلقه الشديد بالصرف والنحو والإعراب ، وكان سيويه يركب حمارة بيضاء اللون ويمشى في الأسواق هاجيا أعداءه ومناقسيه بأفحش الألفاظ ، وعندما سئل لماذا تركب حمارة ، قال : لأن عندى فى البيت حمارة تركبنى !

ولقد جاء المتنبى إلى مصر فحمل عليه سيويه المصري حملة شعواء ، وكان من الأسباب الرئيسية التى تفرقت المتنبى من مصر ومن أهل مصر ، وجعله يهجوهم ويهجوها بشعره الرائع العظيم .

الشعر الحلمنتيشى !

ولقد ظهر فى مصر بعد ذلك بنصف قرن فقط عشرات ومئات مثل سيبويه المصرى ولكن على نحو آخر ، شعراء عقلاء وعلماء تحولوا فجأة إلى مجانين يقولون أشعاراً ولا لخبطة البغبغان ، أولهم أبو الرقعمع ، وابن مكنسة ، وابن دانيال ، ولقد استمر هذا الشعر وتطور ، وأطلقوا عليه فى العصر الحديث اسم الشعر « الحلمنتيشى » ونبغ فيه عباقرة أقدان كان من بينهم حسين شفيق المصرى ، ومحمد مصطفى حمام . وقد ترك حسين شفيق المصرى ثروة هائلة من الشعر الحلمنتيشى كان أعظمها « المشعلقات السبع » على وزن المعلقة السبع التى تركها فطاحل الشعراء العرب معلقة بخيوط من ذهب على أستار الكعبة !

ولقد حرصت على تدوين نص المعلقة فى الجزء الخاص بشفيق المصرى وذلك لكى يقف القارئ على مدى الجهد الذى بذله الشاعر الحلمنتيشى فى كتابة هذه المعلقة ، ذلك أن بعض الموهومين يظنون أن الشعر الحلمنتيشى سهل !! وأنه يكفى أن تقول أى كلام فارغ وهاف لتصبح من الشعراء الحلمنتيشيين !

ولكن الغريب فى الأمر حقاً أن يكون الشعب المصرى هو الشعب الوحيد فى العالم الذى يفرز شعراء من هذا النوع .. وأن تكون مصر هى البلد الوحيد فى العالم الذى يقول شعراؤه شعراء من هذا اللون !

ومن الانصاف أن أقول إن هذا الشعر الحلمنتيشى لم يزدهر ولم يصبح أدباً محترماً إلا فى مطلع القرن العشرين ، حيث كان وسيلة للنقد وسلاحاً فى معركة التريفة على أوضاع الحكم . وصرخة احتجاج ضد الأوضاع المقلوبة فى

الحياة .

والواقع أن النكتة المصرية والفكاهة عموما لم يصبح لها وضع مرموق إلا فى العصر الحديث . ذلك أن الرجل الفكهى كان لا يعدو مجرد مهرج أو أراجوز أو طالب قوت فى نظر الآخرين ، وإن كان الإنصاف أيضا يقتضينا أن نقول أن السواد الأعظم من الناس الفكهية كانوا فى الواقع أرزقية وطلاب قوت .

والسبب أنه فى مطلع هذا القرن اقتحم سوق الفكاهة عدد من الوجهاء وكبار الموظفين ومشاهير الأدباء من بينهم الدكتور بكير الحكيم ، ورشاد بك القاضى ، والدكتور محمد رافت ، وحسن بك رضا المحامى ، ومحمد بك المويلحى ، ومحمد بك البابلى ، ونعمان باشا الأعصر ، وخليل بك خير الدين ، وحافظ بك إبراهيم ، وساويرس بك ميخائيل ولم يمارس هؤلاء الناس الصنعة لإضحاك الناس ، بل للضحك عليهم .

وقبل أن يدخل السوق هؤلاء الإعلام ، كانت الفكاهة مجرد « قفش » ومهرجان للقافية . وهذا النوع من الفكاهة لا يحتاج إلى ذكاء كثير ، بل يحتاج إلى براعة فى التأنى ، وهو لا يحتاج إلى سرعة خاطر لأن أغلبه محفوظ ومكرر ومعاد ويقال فى كل مقام . فإذا كانت قافية السيارات مثلا يقال :

— وشك من الضرب

— اشمعنى .

— كبر ليه .

ويقال أيضا ..

— لما تخش بيتكو

— اشمعنى

— يَتَى فِيهِ تَيْس

ولاحظ التلفيق الذى بين كابور ليه ، وكبرليه ، وكذلك بين
فتيس السيارة ، وفيه تيس التى يقصدها الفنان المشترك فى
القافية .

ولقد برز فى هذا اللون من الفن عشرات وألوف ، ولكن
أبرزهم على الإطلاق كان إمام العبد ، ثم يأتى حسين الفار ،
وسلطان الجزار .

ولكن هؤلاء البهوات المتفرغين للنكتة ، طوروا القافية إلى
شئ آخر رفيع .

ولقد شارك البابلى مشاركة فعالة فى تطوير النكتة
المصرية وتهذيبها ، حتى يجعل السامع يموت من الضحك
بعبارات أرق من النسيم ، وهو فى هذا بعكس بيرم
التونسى ، الذى يضحك بكلام صريح وعبارات صريحة
ومعنى أكثر صراحة .

يقول بيرم التونسى :

فى الأربعة دول فقى عاجز نظر وخبث
قاعد مقرفص وفاتح جبته لإبليس
لأنه عارف بقى المنزل مافيهش أنيس
غير المرة والمشايخ كلهم عميان
كحت وقالت لسيدينا صاحب العمدة
تعرفش تقرا لى عديّة يس كامله
الليلة حالا وتقلبها على كاملة
بنت أم غانم وعيشة بنت خضرة كمان
قال الفقى كل شئ حاضر وأنا خدام
لكن مفيش وقت ياللا استعجلي لنا قوام
واعطى المشايخ حسابهم يذهبوا بسلام

وانا ابات لك بعدية يس سهران

والمعنى هنا واضح وصريح لالف فيه بلا دوران
وكان المعلم دبشة الجزار من أعلام القافية أيضا ، ولكن
أكثر ما قاله لم يدون ، ولكن من القليل الباقي له عبارات تدل
على ذكاء حاد وسرعة بديهية ليس لها مثيل .

ويعتبر مأمون الشناوى هو التطوير الجديد لهذا الاتجاه ،
نكتته مزيج من القافية والنكته ، علق على أطراء الزيادة في
وزن حمادة الطرابلسى . فقال : « أنا كنت قاعد وشفته وهو
بيتخن » .

وكان يركب سيارة مع صديق فقال لصحاب السيارة :

— ما تخاسب شوية .

فقال الصديق :

— أصل الشارع كله مطبات .

وقال مأمون :

— مش معقول المطبات دى كلها فى الشارع ، دا لازم

مطب لزق فى العجلة .

وكان يركب سيارة قديمة جدا وقذرة جدا ، فقال للسائق :

— أبقى اغسل القزاز بتاع العربية .

فقال السائق :

— دا مفيش ازاز يابيه ، دا الإزاز مكسور .

فقال مأمون :

طيب أبقى اغسل الهوا .

ولكن كامل الشناوى كان على عكس هؤلاء . كانت النكته

عنده قصة قصيرة وصورة فنية . وهذا النوع من النكت نبغ

فيه عشرات من الناس ولكنهم جميعا تلاميذ في مدرسة كامل الشناوى ، ومن هؤلاء عبد الحميد قطامش المحامى ، وعباس الأسوانى ، وزكريا الحجاوى .

وان كان زكريا الحجاوى أكثرهم براعة عندما يتكلم ، فإذا كتب تحول إلى إنسان آخر متجهم شديد الكآبة .. كأنه مستودع أحزان !

والحقيقة أنه ليس كل من يقول النكتة يجيدها فى الكتابة . فقد كان البابلى من أبناء النكتة العظام ولكنه لم يكتب شيئا ، وعبد الحميد قطامش كلامه يقطر سخرية وضحكا ، ولكنه حين يكتب شيئا لا وصف له على الإطلاق ، ولو أن عباس الأسوانى استطاع ان يكتب كما يتكلم لأصبح لدينا أديب ليس له نظير على طول الزمان .

ومن هذا الطراز أيضا كان الشيخ عبد العزيز البشرى ، فقد كان تمسكه باللغة العربية الفصحى الحقة ، هو الحائل بينه وبين اكتشاف روحه الحقة كأديب . وأعظم آثاره فى النكتة هى التى تركها شفاهة..

دخل مرة على حافظ ابراهيم وكانا فى طريقهما إلى رحلة ، فاستمعه حافظ ابراهيم حتى يغسل وجهه ، فقال له البشرى :

— وشك مش عاوز غسيل ، نفضه كفاية .

وكان الشيخ البشرى فى مأدبة عند الأباطية وحين عاد بعد أن غسل يديه اكتشف أن أحدهم قد رسم وجهها لعمار على الجبة فقال البشرى :

— مين فيكم اللي مسح وشه فى الجبة ؟!

ويشكوا لطيبه من ألم فى المصران الأعور ، ويشير له إلى مكان الألم ، فيطمئنه الصديق بأن المصران الأعور فى

الجهة اليمنى والألم الذى يعانى به فى الناحية الشمال ، فقال
البشرى :

طيب ما يمكن أنا أعور شمال .
ولكن الشيء الذى تطور حقا هو فن الكتابة الضاحكة .
ولقد كانت كتابات البشرى هى أعظم المحاولات فى هذا
الطريق ، وكذلك استطاع بيرم التونسى وحسين شفيق
المصرى أن يضيفا أشياء كثيرة إلى فن البشرى ، والسبب
هو قدرتهما الفائقة على استعمال العامية ، وثقافتهما العريقة
فى التراث .

وكانت مجلة البعكوكه إضافة جديدة مستقرة ، لأن كل
المحاولات السابقة لم يتوافر لها الاستمرار كالسيف
والمسامير والشجاعة والخلاعة . وحتى الكشكول أيضا لم
يكتب لها البقاء . ولو لم ينضم صاحب البعكوكه إلى قلم
الاستعلامات البريطانى ، ولو لم يكرس جهوده للحرب ضد
بيرم التونسى ، ولو لم يبذل جهدا فائقا لنفاق الملك وبطانته ،
لولا هذا لكانت مجلة البعكوكه هى خير ما نعتز به فى هذا
المجال . ذلك أن الفكاهة لا يمكن أن تدوم طويلا إذا كانت
حربا ضد المبادئ ، أو إذا استخدمت ضد الشعب .
ثم جاءت بعد ذلك مجلة كلمة ونص وكانت إضافة جديدة
بعد البعكوكه .

وتعتبر مجلة صباح الخير هى آخر فوج هذا الطابور .
ولكن ينبغي لنا الوقوف لحظة عند مجلة الفكاهة التى
أصدرتها « دار الهلال » والتى كان يحررها حسين شفيق
المصرى ووليم باسيلي .

فلقد كان العيب الحقيقى فى هذه المجلة هو الوقوف فى
الوسط بين الطغاة والمحكومين ، وبين الاستعمار والشعب ،

لظالمين والمظلومين ، فكانت الفكاهة فيها للفكاهة ولذلك لم تصمد طويلا ، واضطرت دار الهلال إلى ادماجها في مجلة « الاثنين والفكاهة » ولعل هذا هو عيب وليم باسيلي أيضا ، فلو أنه اتخذ لنفسه موقفا محددًا فلربما كان له الآن شأن آخر . ولكنه أثر الحياء في المعركة ، لذلك كانت فكاهته فاترة باردة لا تنفذ حتى العظم .

والفكهي الحق ينبغي أن يكون ممرورا غاية المرارة ، وإلا فإن فكاهته تصبح ضربا من اللهو .

ومن كتاب الفكاهة العظام يحيى حقى ولكنه أثر السكوت لا أدرى كيف ؟ وجليل البنداري أيضا كاتب فكهي جيد ولكنه عندما يتكلم يتحول إلى شتام . وصلاح جاهين كاتب فكهي ممتاز ولكنه عندما يتكلم لاتسمع أى شيء ، وأحمد رجب يعيبه أنه وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه وليم باسيلي من قبل ، ومحمد عفيفي كاتب فكهي جيدا ولكنه يبدو في كتاباته متأثرا بالغرب أكثر من تأثره بالتراث . ولكن كل هؤلاء على مستوى أعظم بكثير مما كان عليه الذين سبقونا إلى رحمة الله .

ابن سودون

ولعل من غريب الأمور أن الكتابة الفكاهية منذ ٥٠٠ سنة كانت أحسن منها في أوائل هذا القرن . فقد كتب ابن سودون المصري أشياء رائدة وبسيطة تصلح للنشر هذه الأيام .. كتب مرة خطابا إلى أبيه في الصعيد :

« ويا والدنا العزيز أعرفك أنتى نجوت من خطر خطير وشر مستطير ، فقد غسلت الجبة ونشرتها على حبل الغسيل ، كانت الليلة قمرها غائب وبردها أثيل ولذا تعكر الجو فجأة ، وهبت ريح عاتية ، من جهة الشمال أتية ، وإذا بالجبة تطير ،

وعلى الأرض تستقر ، فوالله يا والدى ، لو كنت أنا فى الجبة ساعة هذا الحادث الخطير لكنت مت فى الحال وأصبحت جثتى كالفطير .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى القدير .
هذه عينة من كلام ابن سودون .

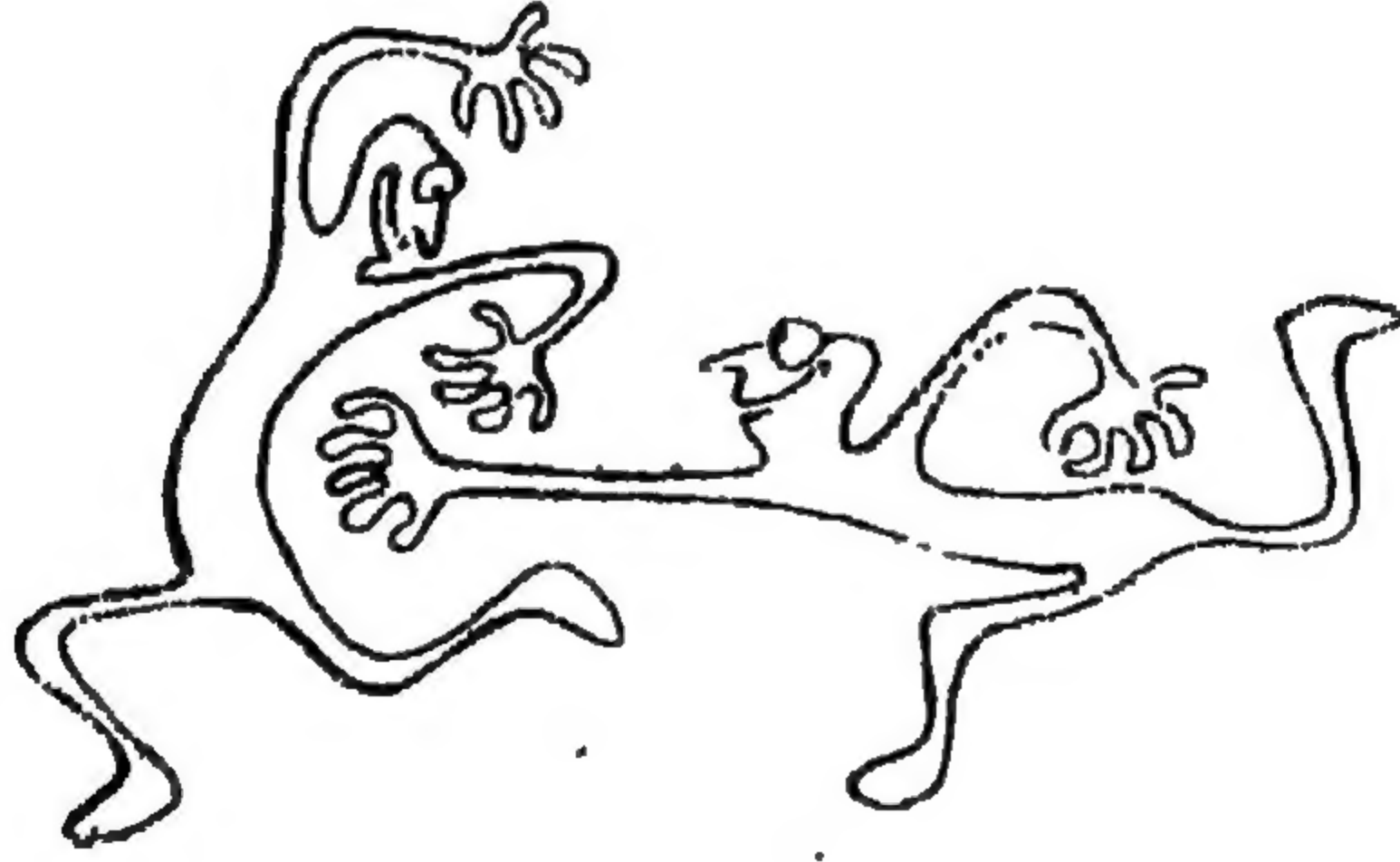
وإليك عينة أخرى من كلام البشرى :

« ولقد كان حافظ ابراهيم يعرف عنى شدة الخوف مثلاً من سرعة السيارات ، يستدرجنى إلى أحداهن لنزهة أولغدوة ولا أركب حتى استوثق من أن السائق لايسرع ، وإذا هو قد أوصاه ، وربما رشاه ، فما يكاد الخنزير يبدأ عمل السيارة ، حتى يجريها فى سرعة الكوكب الهادى والبرق الخاطف ، ما يبالى زحمة الطريق ، ولا مواجهة الترام ، ولا يطامن منه أنه يرقى قلعة ، أو مشى على حافة ترعة أو نحو هذا مما يغلب توقع التلف منه على توقع السلامة » !
من هذه المقارنة نجد أن كفة ابن سودون أرجح ، فإذا قارنا الاثنين بأى كاتب ساخر جديد وجدنا أن النتيجة فى جانب الجديد .

وأعتقد أن بمصر عددا من الكتاب الضاحكين أضعاف أضعاف ما هو موجود فى أى بلد آخر .
وفى ألمانيا الغربية مثلاً يدفعون ثلاثة أضعاف الأجر المحدد لمن يكتب برنامجاً يضحك المشاهدين .
وفى ألمانيا الشرقية دور النشر تترجم كل الكتب الساخرة التى تصدر فى أنحاء العالم .. لأنه لا يوجد كاتب واحد ساخر فى ألمانيا كلها .. غربها وشرقها .
ولعل كتابنا المسرحيين جميعاً من الكتاب الفكاهيين .
وأعظمهم فى هذا المجال بلا شك نعمان عاشور ، ويأتى بعده سعد وهبة ، ثم الفريد فرج .

ولعل مصر أيضا هي البلد الوحيد الذى يتمتع بهذا العدد الوفير من رسامى الكاريكاتير . ذلك أن الرسام الكاريكاتير هو كاتب ساخر ، لأن الكتابة الساخرة هي الأخرى نوع من الكاريكاتير .

فإذا استثنينا من رسامى الكاريكاتير صاروخان ، وطوغان ، وعبد السميع ، باعتبارهم رسامى سياسة وأحداث ومواقف درامية ، لو استثنينا هؤلاء لوجدنا عشرات من الرسامين الفكهين ، أعظمهم بلا جدال ، رخا وصلاح جاهين ، وبهجت ، وحجازى ، وإيهاب ، وجورج ، وطوغان ، والمضحك العام مصطفى حسين .



رقم الايداع ٤٨٧٤ / ٩٢

التقليم الدولي I.S.B.N

977 - 08 - 0393 - 6

